الفصل الثامن

نشاط النثر

١

تطور النثر

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن النثر العربي تطور تطوراً خطيراً، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حملاً لا يزال يروع الباحثين، وكأنما كان في اللغة العربية طاقات مستكنة لكي تحمل في يسر هذه الثقافات ولا تتأبى عليها، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفي مقدمتهم ابن المقفع. ثم رعت الدولة الترجمة، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمى العصر العباسي الأول عصر النقل والترجمة. وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر في كثير مما ترجم في العصر الماضي، وكانت عامة الترجمة فيه حرفية، فالفقرة من الفقر في كتاب تترجم حرفياً، اللفظة مقابل اللفظة، مما قد يصيب الكلام بشيء من الالتواء أو التعثر أو الاضطراب في التعبير. وكان ذلك دافعاً للمترجمين أن يعيدوا النظر في كثير مما ترجم وأن يترجموه ثانية على أساس جديد، هو ترجمة المعاني لا الترجمة الحرفية، بمعنى أن المترجم يقرأ الفقرة وينقل معناها كما ارتسم في ذهنه دون التقيد الحرفي حتى يطرد نسق الكلام ولا يظهر فيه شيء من الاختلال الذي كثيراً ما تدفع إليه الترجمة الحرفية. وحقاً من المترجمين الأوائل من استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه الطريقة الثانية للترجمة مبكرين، على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجماته، ولكنه كان يعد شاذاً وعد في الوقت نفسه من بلغاء العربية، لأننا قلما نحس عنده نشازاً أو التواء أو انحرافاً من شأنه إفساد التعبير، إلا ما قد يكون أصاب بعض رسائله لطول المسافة بيننا وبينه، وما أدخلته أيدي النساخ على مصر العصور في كتاباته، من بعض الخلل. وهو على كل حال خلل قليل جداً، وبين أيدينا ترجمته لكيلة ودمنة، وهي من أروع الترجمات القديمة، وتدل بحق على أنه كان أحد بلغاء العربية لعصره. ولكن ابن المقفع يعد شخصية نادرة بين مترجمي العصر العباسي الأول، إذ لم يكن لكثرتهم بلاغته ولا فصاحته، لذلك أحس المترجمون في العصر العباسي الثاني عندهم غير قليل من الانحراف في التعبير، وتنبهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية، فأخذوا

يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه. وكان هذا كسباً للنثر العربي فإن الضيم الذي كان يداخل الترجمات أخذ يزايلها. واتبع حني بن إسحاق- أكبر مترجمي العصر- منهجاً في ترجمته أن يجمع للكتاب المترجم كل ما يمكنه من مخطوطاته، وأن يعارضها بعضها على بعض مقابلاً بين عبارتها، محاولاً أن يستخلص منها المعاني بكل دقة. وهو أستاذ المترجمين والترجمة في العصر العباسي الثاني الذي وضع بقوة فكرة ترجمة المعاني لا ترجمة الألفاظ أو الترجمة الحرفية. وكان يعمل بين يديه كثير من الشباب في مقدمتهم ابنه إسحق وابن أخته حبيش، يترجمون حسب منهجه، وهو يراجعهم ويصلح لهم بعض ما ترجموه على هدى من طريقته الجديدة. وكان من الكتب التي أعادت ترجمتها هذه المدرسة كتاب الخطابة لأرسطاليس، ترجمه إسحق بن حنين وينص ابن النديم في الفهرست على أنه كان قد نقل قبل ذلك نقلاً آخر، ولا يعين صاحبه، غير أن يسميه "النقل القديم". وقد يقال إذا كانت الترجمة في هذا العصر أصلحت الترجمات القديمة، وبدت في أسلوب عربي مستقيم، فلماذا يبدو الخلل والاضطراب الشديد في ترجمة متى بن يونس لكتاب أرسطاليس عن الشعر؟ وأكبر الظن أن هذا الاضطراب والخلل مصدرهما أن موضوع الكتاب وهو المأساة وما اتصل بها من الشعر القصصي لم يرتسما في ذهن متى رسما بيناً، إذ كان السريان- مثل العرب- لا يعرفون شيئاً عن الشعر اليوناني وفنونه التي ظهرت عندهم القصصية والغنائية والتمثيلية، وهذا هو السبب فيما أصاب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو عند متى من تعثر وخلل. وقد يكون الخلل والتعثر الموجودين في الأصل السرياني الذي نقل عنه الكتاب.

على كل حال انتقلت الترجمة في هذا العصر نقلة واسعة، فقد أخذ المترجمون يتمثلون المعاني التي ينقلونها ويسيغونها ثم يترجمونها إلى لغة عربية فصيحة لا تشوبها شوائب الترجمة الحرفية القديمة. والذي لا ريب فيه أن معرفتهم بخصائص العربية كانت أدق من معرفة أسلافهم، إذ ذللها لهم علماء اللغة والبيان، وكانت قد ألفت كتب كثيرة في بيان طوابعها ومقوماتها، مما عرضنا له في غير هذا الموضع، فطبيعي أن يتقنها غير مترجم. وهذا نفسه يلاحظ فيما أخذ ينشأ منذ العصر العباسي الأول من الأساليب الفلسفية والعلمية، فإن هذه الأساليب لانت وأخذ يزايلها الالتواء، بل أخذ يجري فيها الاستواء والتناسق، وكأن الفلاسفة والعلماء أخذوا أنفسهم بإرادة قوية في التثقف بالعربية. وليس ذلك فحسب، بل أيضاً بالسيطرة على أساليبها سيطرة تقيم تلاؤماً وتوازناً دقيقين بين الألفاظ والمعاني التي تؤديها، بل إن منهم من شارك في الشعر والنثر مثل الكندي أول فيلسوف بالمعنى الكامل ظهر عند العرب، فقد أثرت عنه بعض أشعار، كما أثرت عنه بعض رسائل جيدة، سنعرض لها في موضع آخر، فهو قد أتقن العربية وفقه أسرارها

وخصائصها فقهاً جيداً، ونضرب لذلك مثلاً من أسلوبه الفلسفي، وفيه يتحدث عن صانع الكون ومدبره والشواهد العقلية علي وجوده، يقول[١]:

"إن في الظاهرات للحواس، أظهر الله لك الخفيات، لأوضح الدلالة على تدبير مدبر أول، أعني مدبراً لكل مدبر، وفاعلاً لكل فاعل، ومكوناً لكل مكون، وأولا لكل أولا، وعلة لكل علة، لمن كانت حواسه الآليات موصولة بأضواء عقله، وكانت مطالبه وجدان الحق وخواصه [معرفة] الحق وغرضه الإسناد للحق واستنباطه والحكم عليه. والمزكي عنده- في كل أمر شجر بينه وبين نفسه- العقل. فإن من كان كذلك انتهكت عن أبصار نفسه سجوف[٢] سدف الجهل، وعافت نفسه مشارب عكر العجب، وأنفت من ركاكة معالجة الزهو، واستوحشت من تولج[٣] ظلم الشبهات، وخرجت من الريب على غير تبين، واستحيت من الحرص على اقتناء ما لا تجد، وتضييع ما تجد، فلم تضاد ذاتها ولم تتعصب لأضدادها. فكن كذلك، كان الله لك ظهيراً، أيها الصورة المحمودة والجوهر النفيس يتضح لك أن الله، جل ثناؤه، وهو الإنية (الموجود) الحق التي لم تكن ليساً أبداً، لم يزل- ولا يزال- أيس أبداً، وأنه هو الحي الذي لا يتكثر بتة، وأنه هو العلة الأولى التي لا علة لها، الفاعلة التي لا فاعل لها، المتممة، التي لا متمم لها ... وإن في نظم (انتظام) هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه في بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته على الأمر الأصلح في كون كل كائن وفساد كل فائد وثبات كل ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير".

والقطعة تدل بوضوح على مهارة الكندي البيانية، وأنها لا تقف عند فصاحة التعبير، بل تتعدى ذلك إلى إدخال تلاوين من التكرار ومن الصور البيانية، وما المعنى الذي يريد أن يوضحه الكندي؟ إنه يريد أن يقول إن ما يبصره الإنسان من ظواهر الكون ويحسه من مشاهده ويراه من نظامه واتساق أجزائه دليل على أن هناك مدبراً أعلى للكون، وضع له قوانينه، التي تحول بينه وبين أي اختلاط أو اضطراب، كما يشهد بذلك نظامه الذي يخلو من كل عوج وخلل وفساد، ولكنه أخرج هذه الفكرة في صورة فلسفية مطنبة، وهو في إطنابه لا ينسى خصائص الأسلوب الأدبي وجمال الترادف فيه على نحو ما نرى في قوله: "أعني مدبراً لكل مدبر، وفاعلاً لكل فاعل، ومكوناً لكل مكون، وأولا لكل أول، وعلة لكل علة"، فقد عبر عن معنى واحد بخمس كلمات متوالية، ليقوى المعنى، وليضيف إليه شيئاً من الجمال الذي يلاحظ في التكرار الصوتي.

---

[١] رسائل الكندي الفلسفية تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي أبي ريدة (طبع مطبعة الاعتماد بمصر) ص٢١٤.

[٢] سجوف: أستار . سدف: ظلمات .

[٣] تولج: دخول .

وهو لا ينسى أيضاً ما في الأسلوب الأدبي من روعة التصوير التي تخلب ألباب السامعين، على نحو ما نقرأ في قوله: "فإن من كان كذلك انهتكت عن أبصار نفسه سجوف سدف الجهل، وعافت نفسه مشارب عكر العجب، وأنفت من ركاكة معالجة الزهو، واستوحشت من تولج ظلم الشبهات"، والصور متلاحقة في هذه العبارات، وكأننا بإزاء كاتب أدبي لا كاتب فلسفي. وفي ذلك ما يدل بوضوح على التقاء الفلسفة بالأدب بل على امتزاجهما، فهذا الكندي الفيلسوف يعرض فلسفته في أسلوب أدبي يشتمل على غير قليل من الروعة البيانية. وتلقانا في أسلوبه اصطلاحاته الفلسفية كاصطلاح (الإنية) بمعنى (الموجود) واصطلاح (ليس) بمعنى المعدوم و (أيس) بمعنى الموجود. وهذه الاصطلاحات لا تجوز على العبارات في الأسلوب، بل يندمج فيها لقدرة الكندي كما قلنا آنفاً على المزج بين العبارة الفلسفية والعبارة الأدبية.

وحقاً لم يكن من وراء الكندي من المتفلسفين يبلغون مبلغه في العربية والوقوف على أسرارها وخصائصها الأدبية ولكن من الحق أنهم جميعاً عنوا فصاحة عباراتهم وسلامتها بقدر ما استطاعوا حتى عند من كان منهم ينادي باتخاذ مقاييس البلاغة اليونانية معياراً للفن البياني في النثر. ومر بنا في غير هذا الموضع أنه كانت هناك ثلاثة أذواق: ذوق ينادي بالرجوع إلى اليونان ومعاييرهم البلاغية، وكان يمثله المترجمون السريان ومن التف حولهم من الكتاب الذين كانوا يعكفون على النظر في علم النجوم وفي المنطق والفلسفة والذين كانوا يتحدثون دائماً عن الكون والفساد، وسمع الكيان، والكيفية والكمية، والجوهر والعرض، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم مما كانوا يقرءونه في الكتب المترجمة، على نحو ما يصور ذلك ابن قتيبة في مقدمة كتابه "أدب الكاتب". وكان يقابل هذا الذوق المجدد إلى أبعد حدود التجديد حتى ليرفض المقاييس العربية ذوق كان يرتضى هذه المقاييس، بل كان يرى خطل الاحتكام إلى سواها، فالأدب أدرب عربي له ملكاته الراسخة، وله أساليبه الموروثة المصفاة. وينبغي ألا نعدل عن معاييره الذاتية إلى معايير أخرى ليست من طبيعته ولا من بيئته. وكان يمثل هذا الذوق علماء اللغة المحافظون ومن سار في فلكهم. وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل، لا يغلو غلو الأولين في رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين في رفض المقاييس الأجنبية، بل يقف موقفاً وسطاً بين الطرفين المتعارضين، فهو يعتد بالمقاييس العربية ويأخذ منها ما يوافق العصر ويلائمه، وهو ينظر في المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربي. وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحظ في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، وهو فيه يعرض ملاحظات العرب منذ لجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لخطيب عربي إلا ويسجلها، وينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم- التي استطاع الحصول عليها- في البلاغة دون أن يعلي فريقاً على فريق أو ينصر فريقاً ضد فريق.

وكانت بيئة المتكلمين أسبق من البيئتين الأخريين في وضع قواعد البلاغة النثرية، إذ أخذت تحاول منذ العصر العباسي الأول وضع هذه القواعد، وكان من أهم ما دفعها إلى ذلك تدريب الشباب على المهارة في الخطابة والبيان وكيف يتغلب على الخصوم في حجاجه وجدله. وكانت المناظرات مندلعة بينها وبين أصحاب الفرق الأخرى، وكانت تندلع أحياناً فيما بين أفرادها، فكثر كلامهم عن صفات الخطيب وجهارة صوته ووضوح عبارته وخلابتها وملاءمة كلامه للسامعين وما يحسن من حركاته وغشاراته ودقة أدلته وبراهينه، وكيف يقرع حجة الخصم بالحجة الناصعة وكيف ينقض كلامه نقضاً. وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربي، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية وما ينبغي في ألفاظ العبارات أحياناً من رشاقة وعذوبة وأحياناً أخر من جزالة ورصانة، وما ينبغي للمعاني من وضوح مهما دقت مسالكها. وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هي التي فرقت بين الحقيقة والمجاز وأعدت لمباحث البيان العربي المعروفة[١]. ويلقانا في هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذي ذكرناه آنفاً، وهو يشتمل على كل الملاحظات البيانية والبلاغية التي أوصى بها المتكلمون الأدباء، حتى يحوزوا لأنفسهم بياناً ناصعاً رائعاً. وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه، لأنه هو الذي عايش العصر، وترك آثاراً واضحة فيه، ومن أهم ما ردده طويلاً فكرة مطابقة الكلام للسامعين، فلا يصح لمتكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماء الكلام بكلام الأعراب الممتلئ بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسف يقول: "قبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام أو في مخاطبة أهله. أو في حديثه إذا حدث أو في خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام في صناعة الكلام، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل[٢]". ولا يمل الجاحظ من الدعوى إلى الوضوح، وإلا يوجز كاتب ولا عالم في كلامه حتى يصبح ألغازاً، وقد حمل على كتب الأخفش لما فيها من صعوبة وغموض، كما حمل على كل تكلف، يقول: "متى شاكل- أبقاك الله- اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقاً، ولذل القدر لفقاً، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع[٣]". وتحدث كثيراً عن جزالة الألفاظ وعذوبتها وعن تلاحمها وتنافرها وعن حسن موقعها في مكان وسوئه في مكان آخر، كما تحدث عن دقة استخدام الكلمات، يقول: "قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس

---

[١] كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤.

[٢] الحيوان ٣٦٨/٣٢ والبيان والتبيين ١٤٤/١.

[٣] البيان والتبيين ٧/٢.

لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في مواضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبي ذكر الغيث[١]". ويتوقف مراراً ليشيد بجمال اختيار الألفاظ وجودة الصياغة والسبك وحسن الرصف والنظم، ونراه ينوه بالسجع وأثره في نفوس السامعين[٢]، كما ينوه بالازدواج وما فيه من جمال[٣] صوتي، وكأنه هو الذي أعد لهذين الأسلوبين كي يشيعا على ألسنة الأدباء منذ عصره، وكان هو نفسه يستخدم الازدواج كثيراً في أسلوبه، واستخدم السجع قليلاً، وترددت على لسانه فنون بديعية وبيانية كثيرة، مثل: الأسلوب الحكيم والاحتراس، وكان يسميه إصابة المقدار، والاعتراض، والكناية والحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل. وبذلك هيأ فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصوراً فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسنات محسناً عقلياً هو "المذهب الكلامي" ويريد به الجاحظ دقة حيل المتكلمين في الغوص على الحجج والعلل والمعاذير. وظلت كتابات الجاحظ في البيان والتبيين وكذلك في الحيوان مخازن لا تنفد للبلاغيين المتأخرين، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية.

وقد مت بيئة اللغويين كتباً مختلفة، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغريبة وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب، ومنها ما يعني بضبط ألفاظ وتفسيرها مثل كتابه "الفصيح"، وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد، وهو معرض جيد لنماذج من الشعر والنثر، لا تبلغ في الغرابة مبلغ نماذج ثعلب في مجالسه، ولذلك شغف الأدباء في عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب، وعدوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية. ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان، فيشير إلى الحقيقة والمجاز والاستعارة، ويتحدث عن الكناية ويوزعها على ثلاثة أنواع، فهي إما للتعمية وإما لتحاشي اللفظ الخسيس وإما للتفخيم[٤]، ويجعل التشبيه أربعة أضرب، فهو إما تشبيه مفرط، وإما تشبيه مصيب، وإما تشبيه مقارب، وإما تشبيه بعيد[٥]. والكتاب يمثل ذوقاً محافظاً، فليس فيه أي شيء ينصل بآراء الأجانب في البيان والبلاغة، وليس فيه أي استضاءة بهذه الآراء. ومن الغريب أن نجد ابن قتيبة، وسنعرض في موضع آخر أنه كان مثقفاً بالثقافات الأجنبية المعاصرة، يجنح في ذوقه إلى هذه البيئة اللغوية المحافظة في كتابه

---

[١] البيان والتبيين ١/٢٠.

[٢] البيان والتبيين ١/٢٨٤ ، ٢٩٧ ، ٤٠٨.

[٣] البيان والتبيين ٢/١١٦.

[٤] الكامل للمبرد (_طبعة رايت) ص ٤١٢.

[٥] الكامل ص ٥٠٦.

"أدب الكاتب" وقد مضى فيه يعرف الكتاب بالاستعمالات اللغوية الصحيحة للكلمات، فمن ذلك الطرب يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزع، وليس كذلك إنما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع[١]، ومن ذلك المأتم يذهب الناس إلى أنه المصيبة، يقولون كنا في مأتم، وليس كذلك إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر، والجمع مآتم، والصواب أن يقولوا كنا في مناحة، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء[٢]. ويظل يفتح نحو خمسين باباً لتعليم الكتاب ألفاظاً يجب أن يعرفوا دقة استخدامها، منها ما يتصل بأسماء الحيوان ومنها ما يتصل بأسماء الأفلاك، ومنها ما يتصل بأسماء النبات، ومنها ما يعرف واحده ويشكل جمعه، ومنها ما يتصل بالطعام أو الشراب أو الثياب أو السلاح. ويخرج من ذلك إلى أبواب تتصل بكتابة الكلمات من ذوات الألف أو الواو أو الياء إلى غير ذلك. وينتقل إلى أبواب تقويم اللسان ناصاً فيها على ما يسببه السماع للعامة من الوقوع في الخطأ كأفعال تهمز والعامة تدع حذفها وما هو بالسين ويقولونه بالصاد وما جاء مفتوحاً وهم يكسونه إلى جم من مثل هذه المسائل. ويمضي إلى أبنية الأفعال ومعانيها وأبنية الأسماء ومعانيها، وفي أثناء ذلك يعقد باباً طريفاً[٣] لما يتكلم به العامة من الكلام الأعجمي، سواء أكان أصله روميًا أو بنطيًا أم فارسيًا أم سريانيًا. والذوق العام في الكتاب ذوق لغوي محافظ شديد المحافظة.

ونلتقي بكاتب بغدادي تخرج على يد كتاب بغداد العظام ورحل إلى قرطبة ثم إلى القيروان والتحق بدواوين الدولة الأغلبية وراس ديوان الإنشاء بها هو أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني المتوفى سنة ٢٩٨ وقد صنف على ضوء الذوقين اللذين وصفناهما للبيئتين السالفتين رسالة[٤] بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة، سماها الرسالة العذراء، وهي أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر، وهو يشيد بهذه الصناعة، ويطلب ممن يريد حذقها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم، مع التزود بالنحو والتصريف واللغة والفقه. وأبو اليسر بذلك كله يلتقي بذوق

---

[١] أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن) ص ٢٢.

[٢] أدب الكاتب ص ٢٤.

[٣] أدب الكاتب ص ٥٢٦.

[٤] في الطبعات السابقة من هذا الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني نسبت هذه الرسالة إلى الكاتب إبراهيم بن المدبر متابعة للأستاذ محمد كرد على الذي نشرها في كتابه: "رسائل البلغاء" ونسبها إليه، وتبين له أخيراً أن نسبتها إليه مخطئة وأن الرسالة من صنع أبي اليسر الشيباني المذكور، بشهادة نصوص منها اقتبسها القلقشندي في صبح الأعشى ٤٥١/٢ ، ٤٥٧ ، ٢/٣.

علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاه من الثقافات الأجنبية، كما يلتقي بعلماء اللغة والتصريف، فهو يستضيء بهم جميعاً. ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر في نزع آي القرآن الكريم ووضعها في مواضعها، وكذلك الأمثال والأشعار وإن كانت الخيرة لا تستحب في مخاطبة الخلفاء، وهو في هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة[1] وقد استمد منه كثيراً في رسالته. والمهم أنه يشيد في تكوين ثقافة الأديب بالثقافة العربية، ويضعها جنباً إلى جنب مع الثقافات الأجنبية، مما يدل بوضوح على أنه كان يتأثر ببيئة المتكلمين تأثراً عميقاً. ويتحدث عن زي الكاتب وحسن هندامه، ويطالب- في إلحاح- كما طلب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء والكتاب وولاة الثغور وقواد الجيوش والقضاة والعلماء وذوي النباهة والظرف. ولابد- كما قال الجاحظ مراراً وتكراراً- من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعاني، حتى توضع الألفاظ في مواضعها وتنزل مواطنها. ثم يتوقف- مهتدياً بابن قتيبة- إزاء أبنية ينبغي تركها واستعمال أبنية أخرى، ثمل الدعاء: "أبقاك الله طويلاً" ليس مستحباً، إنما المستحب "أطال الله بقاءك" مع أنه لا فرق في المعنى بين العبارتين، ولكنهم جعلوا الثانية أرجح وزناً وأنبه قدراً.

ولابد أن يعرف الأديب لكل كلمة مكانها، ويضرب مثلاً لذلك أن شخصاً كتب إلى داود بن خلف الأصبهاني معاصره صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر على هذا النمط: "وإن قال كذا فقد خرج عن الملة، والحمد لله" ورد عليه داود متعجباً عن وضع الحمد في هذا المكان قائلاً: "تحمد الله على أن تخرج امرءاً مسلماً من الإسلام، هذا موضع استرجاع، وللحمد مكان يليق به، وإنما يقال في المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون". ويطلب أبو اليسر أ، يوضع مع ذكر الشكوى مثل: "والله المتسعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل"، ومع ذكر البلوي: "نسأل الله دفع المحذور، ونسأل الله صرف السوء" ومع ذكر النعم مثل: "الحمد لله خالصاً، والشكر لله واجباً". ويمضي في إثر الجاحظ، فيقول إنه لا يجوز في الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولا محاكاة الشعر فيما يجري فيه من حذف أو ضرورات. ويحذر من استعمال كلمة "إياك" ويحس ثقلها في مثل "كلمت إياك". ويبدئ ويعيد- على ضوء الجاحظ- في أن الألفاظ ينبغي أن توضع في مواقعها بدقة. ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث تشير في صدرها إلى المراد منها، ويوصي بعدم إطالة المقدمات في الكتابة، ويقول إنها ينبغي ألا تزيد عن سطرين أو ثلاثة. ثم يفيض في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة برية وأنواعه وأجودها، ويوصي بعدم إغفال الصلاة على الرسول عليه السلام. ويلفت إلى كيفية كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر، فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قال الكاتب: لكذا ليلة مضت من شهر كذا،

---

[1] البيان والتبيين ١/١١٨.

وإن كان الباقي أقل من النصف قال: لكذا ليلة بقيت. ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطيها. ويشير- على هدي ابن قتيبة- إلى العناية بميزان التصريف. ويعود إلى وضع الألفاظ في أماكنها، وينهي- كما نهى المتكلمون من قبل- من ليست له موهبة أدبية عن محاولة الانتظام في هذه الصناعة. وينقل عن أحد المتكلمين، وهو العتابي، رأيه في اختيار الألفاظ وصعوبته. وينصح الكاتب بعرض ما يكتبه في باكورة حياته على المختصين ليروا مقدار صلاحيته للصناعة. وينهي- على هدى الجاحظ- عن الألفاظ الحوشية والمبتذلة، وينقل عن إعجابه بالكتاب إذ قال: "ما رأيت قوماً أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً". ويعود على فكرة الوضوح الجاحظية، وينقل عنه بعض كلامه. ويذكر أرسطو وينقل عنه بعض ما قاله في النصبة التي تدل على اللفظ والإشارة والخط والعقد كأعلام الأفراح، وينقل أيضاً عن حده للإنسان وأنه الحي الناطق، وهو بذلك يقترب من ذوق المتكلمين وانتفاعهم ببعض ما ترجم دون الذوبان فيه. ويبين أهمية الكتب المحبرة تحبيراً جيداً في استنزال الجبابرة وأنها قد تصنع مالا تصنعه الجيوش اللجبة. ثم يسوق صفحات جلبها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة. ولا يكتفي بذلك بل ينقل أيضاً الصيحفة التي دونها الجاحظ عن الهنود في البلاغة، ويتلوها بما دونه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخيل بن أحمد، وكل ذلك دليل واضح على أن أبا اليسر وضع نصب عينه في كتابته لرسالته العذارء ابن قتيبة والجاحظ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى أعمق أثراً.

وحتى الآن لم نتكلم عن كتاب يمثل بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم في الدعوة لمعايير البلاغة اليونانية، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة في مجال النثر والكتابة هو الكتاب الذي نشر باسم نقد النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر، وقد تبين فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سليمان ابن وهب، وهو من أسرة ظلت تعمل في دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون، وكان جده وزيراً للمهتدي والمعتمد، وتوفى سنة ٢٧٢ فبينه وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بأخرة من هذا العصر. ونراه في مستهل كتابه يزري على كتاب الجاحظ: "البيان والتبيين"، وهذا طبيعي لنه يمثل بيئة المتفلسفة والمترجمين التي كانت تعارض المتكلمين في مقاييسهم البلاغية، لأنهم لم يستوعبوا في رأيه كتابات ارسطو في المنطق والجدل والخطابة. وهو يفتتح كتابه بمباحث في العقل تدل على أنه شيعي إمامي، ويعقد فصلاً للقياس يحلله فيه على طريقة أرسطو، ويقول إنه جعل عماداً وعياراً على العقل كما جعل البركار لتقويم الدائرة والمسطرة لتقويم الخط. ويفيض في مباحث تتصل بالأخبار وبالفقه. ويتكلم عن بعض خصائص التعبير كما يتكلم عن الرمز ويقول إنه أتى منه

كثير في كتب المتقدمين من الفلاسفة وكان أكثرهم استعمالا له أفلاطون. ويعود على الحديث عن بعض خصائص العبارات وعن الأمثال والالتفات وعن المبالغة ويرتضيها متأثراً بأرسطو، ويعرض لمبحث الفصل والوصل بين العبارات وكذلك لمبحث التقديم والتأخير. ويقسم الكلام المنثور إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث، وينوه بالإيجاز الذي حذر الجاحظ منه، ويقول إن أرسطو وإقليدس كانا شديدي الإيجاز، بينما امتاز بالإطناب جالينوس ويوحنا النحوي. ويعقد فصلاً في نحو عشرين صحيفة، أجمل فيه كتاب الجدل لأسطو. وواضح أنه توسع في تشريعه للنثر العربي ووضعه لمعاييره في الأخذ عن كتابي أرسطو في المنطق والجدل. وهو أخذ يبدو فيه الجفاف وأنه ينبو عن الذوق العربي، ولذلك لم يلق هذا الكتاب ترحيباً من المتأدبين. وكان لذلك أثره في أن نقاد العرب لم ينقلوا عنه شيئاً في كتاباتهم عن الخطابة والنثر، إذ رأوه يحتكم إلى أشياء غير وثيقة الصلة بأدبهم، ومن أجل ذلك ظل الكتاب وصاحبه مجهولين من عامة النقاد. ولا نبعد إذا قلنا إن بيئة المتكلمين هي التي سيطرت بما وضعته من معايير على أذواق الكتاب والأدباء في العصر، وظل ذلك حقباً متطاولة، وهي كما قلنا بيئة معتدلة كانت تزاوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة، كما ظلت مقوماتها حية، مقومات تعتمد على التراث القديم وتتطور بما يلائم العصر والثقافات الحديثة، تطوراً لا يجني على العربية، بل تجني منه ثماراً رائعة، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح.

وعلى هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبي العالم، وكان لذلك أثره في ازدهر النثر العربي وأخذت موضوعاته تتنوع نوعاً واسعاً، وقاد هذا الازدهار الجاحظ المتكلم المشهور، إذ نراه يعني بتصوير الطبقات في مجتمعه، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالي والعرب والنصارى واليهود، ويفسح للطبقات العامة، فيكتب عن اللصوص والمكدين وحيلهم والقيان والمرأة. وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السمر التي كانت تقرأ في كل مكان. وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية وقصص البطولة والإسرائيليات. وظل الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية قائماً، وكان أهم ما ترجم في هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية هزار أفسان أي ألف حكاية. ويفهم من كلام المسعودي عنه أن حكايات السندباد لم تكن جزءاً منه في عصره، بل كانت مستقلة. ويقول إن مؤلفها حكيم هندي يسمى السندباد، وهي تشتمل على كتاب الوزراء السبعة، والمعلم والغلام، وامرأة الملك. ويذكر المسعودي أنه كانت هناك حكايات مماثلة ترجمت عن الرومية[1]. ومما ترجم حينئذ أو قل مما استمد من أصول فارسية كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ، وقد ألفه أحد معاصريه وقدمه إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل، وهو يصور نظم الساسانيين حكام الفرس

---

[1] أنر في ذلك كله مروج الذهب ٩٧/١ ، ٢٥١/٢.

قبل الإسلام وتقاليدهم. ومعنى ذلك أن النقل عن الفارسية ظل محتدماً في هذا العصر، ولكر أخذت الشخصية العربية تثبت وجودها في قوة، فبمجرد أن ترجم كتاب ألف ليلة وليلة ألف محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتاباً على نسقه به ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم. وظهرت في العصر كتب أسمار كثيرة، وكانت تتلهف عليها العامة، وخاصة ما دار منها حول الحب وأقاصيصه أو حول الجن أو حول بعض النساء. وكثرت كتب النوادر والكتب التي تصور أحوال الحمقى وأقوالهم وأفعالهم، وكتب الندماء والمنادمة، وكذلك الكتب التي تصور أخلاق العامة مثل كتابات مساوئ العوام وأخبار السفلة والأغتام للصيمري.

وكثرت كتب الأدب التهذيبي، وممن أكثر منها ابن أبي الدنيا المتوفى سنة ٢٨١ وقد نشر في القاهرة مختصر صنعه السيوطي لكتابه الفرج بعد الشدة، وكانت له كتب مختلفة في مكارم الأخلاق. ومثله محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩ وقد ترجم كتباً كثيرة عن الفارسية وله تصانيف حسان في الأخا وأحوال الناس، منها كتابه: "تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب ومثلهما أبو بكر الخرائطي السامري المتوفى سنة ٣٢٥، وله مكارم الأخلاق ومعالي؟؟ ومحمود طرائقها ومراضيها، نشر بالقاهرة.

وبجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعاً جديداً، هو وصف البلدان، إذ ألف كتاباً فيه سماه كتاب الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها[١]. ويبدو أنه اعتمد في وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ في جوانب من كلامه على نحو ما لاحظ المسعودي إذ يقول: "وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه، ولست أدري كيف وقع له هذا الدليل، ذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان .. لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار .. إنما كان ينقل من كتب الوراقين[٢]". وملاحظة المسعودي صحيحة، ولكنها لا تغض من أهمية هذا الكتاب الذي فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعاً جديداً للكتابة، وكان ممن تابعه فيه معاصره اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، وكتابه البلدان منشور. وتعاقبت بعد ذلك الكتاب في هذا الموضوع. والمهم أن الجاحظ أثار في كتابه بقوة فكرة البيئة وطوابعها في السكان، وقد كتبه بأسلوبه الأدبي البارع.

---

[١] راجع كتاب الجاحظ للدكتور طه الحاجري (طبع دار المعارف) ص٣٨٩ وما بعدها.

[٢] أنظر مروج الذهب ١/١١٤.

٢

الخطابة والمواعظ والنثر الصوفي

ضعفت الخطابة السياسية في هذا العصر، كما ضعفت الخطابة الحفلية، فكلاهما أصبح شيئاً نادراً، وحتى ما بقى منهما إنما هو شظايا قليلة كتلك الشظايا التي حكاها الطبري عن صاحب الزنج، بل لقد أجمل ما رواه من خطبه[١] بحيث لا نكاد نتبينها في وضوح. وضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة في المساجد وفي خطب الجمع والعيدين، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتدي الورع الذي ظل في الحكم نحو عام، فإنه كان يذهب إلى المسجد الجامع بسامراء في كل جمعة ويخطب الناس ويؤمهم[٢]، ويروي أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب في بعض الأحيان، فأرتج عليه ولم تسمع خطبته[٣]، ولم يخطب خليفة بعده في العصر سوى الراضي، ولم تؤثر خطبه.

ولكن الخطابة الدينية إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطة نشاطاً عظيماً في المساجد فقد كان تعقد حلقات للوعاظ والقصاص وكان الناس يتحلقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد، وكان منهم الرسميون الذين تعينهم الدولة للخطابة في أيام الجمع ومنهم غير الرسميين، وهم الجمهور الأكبر. وكانوا يستمدون في وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوي وقصص الأنبياء والمرسلين، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره، وكانوا يعنون بعون الضعفاء والمساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين في ذلك بأعمال البر. وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين من مثل أبي العباس الطبري الذي مر ذكره والذي كان يعظ ويقص على المجاهدين في طرسوس. ولم يكن يخلو يوم من أيام رمضان من واعظ أو قاص بعد الصلاة. وكانت العامة تشغف بهم شغفاً شديداً، حتى ليحكي عن الطبري أنه تعرض لقاص ببغداد ينكر عليه بعض ما يقوله، فصاحت به العامة ورموا باب داره بالحجارة. ولابد أن نفرق بين هؤلاء القصاص الوعاظ وبين قصاص آخرين كانوا يجلسون للشباب والغلمان في الطرقات ببغداد ويقصون عليهم نوادر الأخبار والحكايات الهزلية، وكانوا يسلكون في المشعوذين، ويضطرب بعض المستشرقين فيخلط بينهم وبين القصاص الوعاظ، ولا صلة بين الطرفين إلا في الاسم،

---

[١] الطبري ٩/٤١٤ وما بعدها.

[٢] مروج الذهب ٤/٩٦.

[٣] طبري ١٠/٣١.

وهؤلاء هم الذين كانت الدولة تطاردهم أحياناً كما مر بنا في غير هذا الموضع، أما قصاص المساجد الوعاظ فكانوا موضع رعاية الدولة منذ عصر بني أمية، وظل ذلك بعدهم، حتى لنجد بعض من يسند إليهم القصص في المساجد يسند إليهم القضاء[1]. أما الوعاظ فكان منهم دائماً خطباء المساجد في الجمع والأعياد وأئمتها في الصلاة، وكان منهم كثيرون فصحاء بلغاء، فكان الناس يحتشدون حولهم، مكبرين لهم إكباراً عظيماً.

وكانت المساجد دائماً مفتوحة ليلاً ونهاراً، ودائماً يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس، فكان الواعظ يختار أي وقت يشاء لموعظته، وإن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات. ومن كبار الوعاظ الذين شهدتهم بغداد في العصر أبو الحسن علي بن محمد الواعظ المصري المتوفى سنة ٣٣٨ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء.

وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعاظ، كانوا يسمون بالمذكرين، ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر أي ذكر الله وتسبيحه، وكانوا من الصوفية، بل كانوا خطباءهم ووعاظهم الممتلئين صلاحاً وتقوى وروعاً، وكانوا يعظون الناس في المساجد وفي الزوايا، خالطين الخوف بالرجاء، مستشهدين ببعض آي القرآن، وبعض الحديث، وقد يفسرونهما ويعلقون عليهما، مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التي تأسر العقول والقلوب. ومن وعاظهم في العصر يحيى بن معاذ الرازي المتوفى عام ٢٥٨ ويروي أنه جاء إلى شيراز، فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله:

مواعظ الواعظ لن تقبلا حتى يعيها قلبه أولا

وانهال الناس عليه بعد ذلك انهيالا. ومن أكبر وعاظهم في العصر أبو حمزة الصوفي المتوفى سنة ٢٦٩ وهو – كما مر بنا في الفصل الثاني – أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد خالطاً مواعظه باصطلاحات الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهم والمحبة والعشق والأنس. وكان هؤلاء الوعاظ يجذبون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعاظ العاديون لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ورفض كل متاع.

وتكونت حول هؤلاء الوعاظ من المتصوفة سريعاً حكايات كثيرة تصور جهادهم العنيف في قمع شهوات النفس ولذاتها وكيف كان الصوفي يفرض على نفسه عناء شاقاً مضنياً لا يطيقه إلا أولو العزم. وعادة تحتوي القصة أو الحكاية ما يلفت الصوفي إلى تقصيره وأن عليه أن يتحمل أهوالاً ثقالاً، فمن ذلك ما يروى عن بشر الحافي المتصوف المتوفى قبيل هذا العصر سنة ٢٢٧ من أنه مر ببعض الناس فسمعهم يقولون: هذا الرجل لا ينام الليل كله ولا يفطر إلا في كل ثلاثة

---

[1] الولاة والقضاء للكندي (طبعة جيست) ص٤٢٧.

أيام مرة، فبكى حين سمعهم يرددون هذا الكلام، وسأله سائل: ما يبكيك ؟ فقال: إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة، ولا أني صمت يوماً ولم أفطر من ليلته، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه[١] وكرماً. ويحكي عن السرى السقطي المتوفى سنة ٢٥١ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمه، فإذا أصبح جاءت عصفورة، وأكلت تلك اللقمة من يده، وذات يوم اشتهى أن يأكل الخبز بالقديد (لحم مقدد) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة التي تعودت أكلها، فعاهد نفسه ألا يتناول أبداً شيئاً من الإدام[٢]!. ويروي ابن أخته الجنيد أنه دخل عليه يوماً، فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك ؟ فقال: جائتني البارحة الصبية، فقالت: يا أبت هذه ليلة حارة، وهذا الكوز أعلقه ههنا، ثم إني نمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلت من السماء فقلت لها: لمن أنت ؟ فقالت: لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان، فتناولت الكوز، فضربت به الأرض فحطمته[٣]. وهما خبران رمزيان يصوران ما كان يأخذ به السري نفسه من الشظف في العيش والحرمان الشديد. ويحكي عن رويم بن أحمد المتوفى سنة ٣٠٣، وكان مجرداً من الدنيا زاهداً ورعاً، أنه اجتاز في بغداد وقت الهاجرة ببعض الطرقات وهو عطشان، فاستسقى من دار، ففتحت الباب صبية ومعها كوز ماء، فأخذه منها وشرب، فاستدارت له قائلة: صوفي يشرب بالنهار! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط[٤].

وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكون ضرباً من ضروب الآداب الشعبية العربية، إذ كان الناس يتداولونها رجالاً ونساء وشيباً وشباناً، وكأن التصوف كان عاملاً قوياً في ظهور تلك الآداب وطبعها بطوابع الشعب ولغته وألفاظه. وتتصل بها الحكايات التي أخذت تؤثر عن كرامات المتصوفة، ومر بنا في الفصل الثالث أن الحكيم الترمذي المتوفى سنة ٣٢٠ صنف في تلك الكرامات كتاباً سماه "ختم الولاية" يريد ولاية الصوفية وأنهم أولياء الله في أرضه، ولذلك تظهر على أيديهم كرامات كثيرة. وممن تكثر إضافة الكرامات إليه في هذا العصر بنان الحمال المصري المتوفى سنة ٣١٦، فقد قيل إن خمارويه أمر بأن يطرح بين يدي سبع، فطرح وبقي ليلته، وجعل السبع يشمه ولا يضره، فلما أصبحوا وجدوه قاعداً مستقبل القبلة والسبع بين يديه. وعجب خمارويه، فأطلقه واعتذر إليه[٥]. وحكى أنه كان لرجل على آخر دين: مائة دينار، بوثيقة، فطلب الرجل الوثيقة فلم يجدها، فجاء إلى بنان ليدعو له، لعله يجد الوثيقة الضائعة،

---

[١] رسالة القشيري (طبعة سنة ١٣٤٦ هـ بمصر) ص٢٠.

[٢] القشيري ص ١٠.

[٣] القشيري ص ١١.

[٤] القشيري ص ٢١.

[٥] انظر في هذه الحكاية وتاليتها النجوم الزاهرة ٣/٢٢١.

فقال له بنان: أنا رجل قد كبرت وأحب الحلواء، اذهب إلى قريح (حلواني) فاشتر رطل حلواء وائتني به، أدعو لك، ففعل الرجل، وجاءه. فقال له بنان: افتح ورقة الحلواء، ففتحها، فإذا هي الوثيقة، فقال: هذه وثيقتي، فقال بنان: خذها، وأطعم الحلواء صبيانك. ولم يكن بمثل هاتين الكرامتين إلا عوام المتصوفة، وهو ما يعنينا، إذ دارت حكايات هذه الكرامات على ألسنة العامة، وبذلك كان التصوف عاملاً قوياً في العصر على ذيوع لون شعبي جديد من الأدب، وهو لون قصصي، وقد أخذت تؤلف فيه المصنفات مثل كتاب "ختم الولاية" الآنف ذكره، وكان بدورها مصنفات شعبية تتداولها كثرة من الأيدي. ولعله من المهم أن نعرف أن خاصة المتصوفة وكبارهم في العصر كانوا ينكرون هذه الكرامات إنكاراً باتاً، فيحكى عن أبي يزيد البسامي المتوفى سنة ٢٦١ أنه قيل له إن فلاناً يمشي في ليلة إلى مكة، فقال:

الشيطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله. وقيل له: فلان يمشي على الماء ويطير في الهواء، فقال: الطير يطير في الهواء والسمك يمر على الماء[١]. وجاء رجل إلى سهل التستري المتوفى سنة ٢٧٣، فقال له: إن الناس يقولون إنك تمشي على الماء، فقال له: سل مؤذن المحلة، فإنه رجل صالح لا يكذب، قال: فسألته، فقال المؤذن: لا أدري هذا، ولكنه نزل حوض الماء في بعض الأيام ليتطهر، فوقع في الماء، فلو لم أكن أنا لبقى فيه[٢]. ويروي عن بعض الصوفية أنه قال: كان في نفسي شيء من هذه الكرامات، فأخذت قصبة من الصبيان وقمت بين زورقين، ثم قلت: وعزتك لئن لم تخرج لي سمكة قدرها ثلاثة أرطال لأغرقن نفسي، قال: فخرجت لي سمكة قدرها ثلاثة أرطال، فبلغ كلامه الجنيد، فقال: كان حقه أن تخرج له أفعى تلدغه.

والمهم أن التصوف نشر بهذه الحكايات المتصلة باحتمال المتصوفة لأثقال الشظف وما اعتقدته العامة فيما جرى على أيديهم من الكرامات أدباً شعبياً قصصياً كان يدور بين الناس. ولون ثالث من هذه الحكايات كان يقص أخبار المتصوفة لعل خير ما يصوره كتاب أخبار الحلاج، وهو أخبار وحكايات عنه بألسنة تلاميذه، تحمل أحواله وآراءه ومعتقده، فمن ذلك ما رواه تلميذه إبراهيم الحلواني، قال[٣]:

"دخلت على الحلاج بين المغرب والعشاء، فوجدته يصلي، فجلست في زاوية البيت، كأنه لم يحس بي لاشتغاله بالصلاة، فقرأ سورة البقرة في الركعة الأولى، وفي الركعة الثانية آل عمران، فلما سلم سجد وتكلم بأشياء لم أسمع بمثلها، فلما خاض في الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذ على

---

[١] القشيري ص ١٦٣.

[٢] القشيري ص ١٦٤.

[٣] أخبار الحلاج ص٢٠.

نفسه، ثم قال: يا إله الآلهة ويا رب الأرباب ويا من (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) رد إلي نفسي لئلا يفتتن بي عبادك. يا هو أنا، وأنا هو، لا فرق بين إنيتي (وجودي) وهويتك إلا الحدوث والقدم. ثم رفع رأسه ونظر إلي وضحك في وجهي ضحكات، ثم قال: يا أبا إسحق أما ترى أن ربي ضرب قدمه في حدوثي حتى استهلك حدوثي في قدمه، فلم يبق لي صفة إلا صفة القديم، ونطق في تلك الصفة. والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث. ثم إذا نطقت عن القدم ينكرون علي ويشهدون بكفري ويسعون إلى قتلي. وهم بذلك معذورون، وبكل ما يفعلون بي مأجورون".

والحكاية تصور عقيدة الحلاج في أنه بتحمله للآلام الثقال أصبح- كما يزعم- في مرتبة عليا، بحيث ارتسمت الصورة الإلهية فيه، إذ ظهر فيه اللاهوت، وأصبح لا يفرق بين نفسه وربه، فقد امتزج الحدث أو الحداثة فيه بالقدم، بل إنه لمن تبق فيه صفة إلا صفة القدم، بخلاف من حوله من الناس، فهم جميعاً يستشعرون الحدوث، أو قل كلهم حادثون، وهو وحده الذي أصبح يستشعر القدم، فلماذا ينكرون علي التكلم عن القدم، مع أنه هو- كما يزعم- والقديم شيء واحد!. وله عبارات تدل على أنه كان في بعض أحواله يؤمن بتنزيه الذات العلية عن الشتبيه بالمخلوقات وفي أخباره عن أحمد بن سعيد الإسبينجاني قال[١]:

سمعت الحلاج يقول: ألزم (الله) الكل الحدوث لن القدم له. والذي بالجسم ظهوره العرض يلزمه. والذي بالإرادة اجتماعه قواها تمسكه. والذي يؤلفه وقت يفرقه وقت. والذي يقيمه غيره الضرورة تمسه. والذي الوهم يظفر به التصوير يرتقي إليه. ومن آواه محل أدركه أين. ومن كان له جنس طالبه كيف. إنه تعالى لا يظله فوق ولا يقله (يحمله) تحت. ولا يقابله حدولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلف خلف ولا يحده أمام. ولا يظهره قبل ولا يفيته بعد. ولا يوجده كان ،ولا يفقده ليس (عدم). وصفه لا صفة له. وفعله لا علة له. وكونه لا أمد له، تنزه عن أحوال خلقه. ليس له من خلقه مزاج، ولا في فعله علاج، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم".

ويستمر الحلاج في مثل هذا التنزيه لله، فهو لا يشبه الكائنات في شيء ولا يشبهونه في شيء، تفرد بذاته وصفاته عن ذواتهم وصفاتهم فهم حادثون وهو قديم، لا يلزمه شيء ولا يمسكه شيء، كل واحد لا أجزاء له، لا تمسه ضرورة ولا يلحقه وهم، ولا يؤويه مكان ولا تحتويه صفة، لا شيء فوقه ولا آخر تحته، لا يحده حد ولا جهة من الجهات، موجود قبل كل وجود، ولا يلحقه عدم ولا فناء، ولا يصفه وصف لا يسأل عما يفعل، أزلى أبدي، ليس كمثله شيء، قديم والخلق جميعاً حادثون. ومر بنا أنه ربما كان أول صوفي دعا للانفصام بين الحقيقة (التصوف) والشريعة، وفي أخباره أنه قال في رسالة له أرسل بها إلى بعض تلامذته[٢]:

---

[١] أخبار الحلاج ص ٣١.

[٢] أخبار الحلاج ص٧٣.

"أعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى مواقف التوحيد، فإذا وصل إليها سقطت ن عينه الشريعة واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق، فإذا ترادفت عليه اللوائح وتتابعت عليه الطوالع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة عنده هوساً، فبقى بلاعين ولا أثر، إن استعمل الشريعة استعملها رسماً، وإن نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهراً".

وواضح أنه يجعل الشريعة للناس العاديين، أما أهل الحقيقة من أمثاله فإنهم يسقطون الشريعة ويسقطون معها الفروض الدينية ! فلا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة، بل إن المتصوف إذا ظل راقياً في مراقي الحقيقة العليا، سقطت عنده لا الشريعة وحدها، بل كل شيء حتى الوحيد!. ولعل في الفقرة الأخيرة من كلامه ما يشير إلى لون رابع من ألوان النثر الصوفي، هو تصوير الصوفية لمعتقداتهم في مصنفات خاصة، على نحو ما يلقانا في كتاب الطواسين له، ويحسن أن نعرض منه قطعة أو فقرة نصور كتابته الصوفية، ولتكن القطعة التي كتبها عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في مستهل الفصل الأول من كتابه، وهي تجري على هذا النمط[1]:

"طس سراج من نور الغيب بدا وعاد، وجاوز السراج وساد، قمر تجلي من بين الأقمار، برجه في فلك الأسرار، سماه الحق أمياً لجمع همته، وحرمياً لعظم نعمته، ومكياً لتمكينه عند قربه، شرح صدره، ورفع قدره، وأوجب أمره، فأظهر بدره. طلع بدره من غمامة اليمامة، وأشرقت شمسه من ناحية تهامة ... (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون). أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، همته سبقت الهمم، ووجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم، لنه كان قبل الأمم ... وهو سيد البرية الذي أسمه أحمد، ونعته أوحد، كان مشهوراً قبل الحوادث والكوائن والأكوان ولم يزل، كان مذكوراً قبل القبل وبعد البعد، هو الذي جلا الصدأ عن الصدر المغلول، وهو الذي أتى بكلام قديم لا محدث ولا مقول ولا مفعول .. فوقه غمامة برقت، وتحته برقة لمعت وأشرقت وأمطرت وأثمرت. العلوم كلها قطرة من بحره، والحكم كلها غرفة من نهره، الأزمان كلها ساعة من دهره، هو الأول في الواصلة، والآخر في النبوة، والباطن بالحقيقة، والظاهر بالمعرفة".

و "طس" تبتدئ بها سور معروفة في القرآن الكريم، وقد اختار جمعها اسماً لكتابه! وهو يشيد بالرسول عليه السلام متمثلاً فيه فكرة اللاهوت، بل إنه ليجعل نوره المحمدي أول شيء خلقه الله. وقد ظل يظهر في نبوات الأنبياء منذ آدم، وليس ذلك فحسب، فهو مبدأ الوجود وروحه، وهو منبع العلم والعرفان والحكمة، أو هو الأول السابق في الوجود لكل وجود، وهو الآخر في النبوات وبين الأنبياء، وكأنه الحقيقة الإلهية السارية في الوجود كله، فمنها يستمد الكون وجوده وكل نبي

---

[1] الطواسين ص ٩-١٤.

نوره، بل إنه هو المشاهد في كل نور. وذكر أن الرسول عليه السلام أتى بكلام قديم، وبذلك خالف المعتزلة مخالفة صريحة في قولهم بأن القرآن كلام الله ليس قديماً بل هو مخلوق وحادث.

وواضح أن الحلاج كان يستخدم في كتابه الطواسين السجع، وبذلك لاءم بين أسلوبه وأسلوب الكتابة في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع فإن السجع أخذ يعم في الكتابات الأدبية. وربما كان في اختياره لهذا الأسلوب ما يدل على أنه أراد أن يرتفع بكتابه الطواسين عن الطبقة العامة إلى الطبقة الخاصة محاولاً أن يؤثر فيها بما حشده فيه من السجع تارة ومن الشعر تارة ثانية، وكأنه كان يعرف قبل غيره أن العامة لن تفهم أفكاره الصوفية المعقدة، فقدمها إلى الطبقة الخاصة مودعاً فيها من السجع والشعر ما يفسح للرمز والتأويل.

٣

المناظرات

مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول ما يصور اندلاع المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل اندلاعاً هيأ لظهور كثير من كبار المناظرين في شئون الدين والعقل كما هيأ لبسط المعاني ومدا بذخائر جديدة من توليد الأفكار وتشعيبها والتعمق في مساربها الخفية، وقد أسلفنا أن مجد المعتزلة سقط في هذا العصر منذ وقف المتوكل قولهم القائل بخلق القرآن وفسح لآراء أهل السنة، وقد غضب غضباً شديداً على ممثل المعتزلة في بلاط المعتصم والواثق من قبله، ونقصد أحمد بن أبي دؤاد.

لم يعد للمعتزلة مجدهم القديم، ولكنهم لم يتراجعوا عن الوظيفة التي ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل، فكانوا بالمرصاد للملاحدة، ومر بنا كتاب الانتصار للخياط المعتزلي الذي رد رداً مفحماً على ابن الراوندي الملحد. وظل الجدل عنيفاً بين المعتزلة وغيرهم من المتكلمين، على نحو ما يصور لنا ذلك الجاحظ في كتاباته وخاصة في كتابه "فضيلة المعتزلة" وتلاه في رياسة المعتزلة بالبصرة أو يعقوب الشحام، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن حرب المعتزلي، وحكى الخياط مناظرة بينه وبين السكاك الرافضي في علم الله جل جلاله وحدوثه وقدمه وإثباته ونفيه[١]، وفي موضع آخر يحكي المناظرات التي انعقدت بين هذا الرافضي وأبي جعفر الإسكافي المعتزلي قائلاً: "وهذه مجالسة مع أبي جعفر الإسكافي معروفة يعلم قارئها والناظر فيها مقدار الرجلين وفرق ما بين المذهبين[٢]". وكانت تدور في مجالس أبي على الجبائي المتوفى سنة ٣٠٣ مناظرات كثيرة أهمها ما دار بينه وبين ربيبه وتلميذه أبي الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤، وكانت ترجح كفة الأشعري غالباً. من ذلك مناظرتهما في الصلاح والأصلح إذ كانت المعتزلة ومعهم أبو علي الجبائي يوجبون على الله فعل الأصلح، وقد سأله الأشعري في أثناء احتدام المناظرة عن عاقبة ثلاثة: مؤمن وكافر وصبي ماتوا جميعاً، فأجابه بأن المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبى من أهل النجاة. وأخذ الأشعري يراجعه إلى أن قال له: فلو قال الكافر: يا رب علمت حال الصبي وأنه لو بقى لعصي وعوقب فراعيت مصلحته، وعلمت حالي مثله، فهلا راعيت مصلحتي. حينئذ انقطع الجبائي وألزمه الأشعري أن الله يخص من شاء برحمته ومن شاء بعقابه وأن أفعاله غير معللة[٣].

---

[١] الانتصار للخياط ص ١١٠.

[٢] الانتصار ص ١٤٢.

[٣] طبقات الشافعية للسبكي ٣/٣٥٦ وما بعدها .

وكان الخلاف واسعاً بين بعض أصحاب المذاهب الفقهية، فكثرت المناظرات بينهم، وفي طبقات الشافعية للسبكي أطراف من هذه المناظرات، ومما يذكره أن أبا العباس بن سري القاضي رئيس الشافعية ببغداد كان مشغوفاً بمناظرة داود الظاهري، حتى إذا توفى داود مضى يناظر ابنه محمداً في المذهب الظاهري، يقول: ولهما المناظرات المشهورة والمجالس المروية، ويحكى أن ابن داود قال لابن سريج يوماً: أبلعني ريقي، فقال له: أبلعتك نهر دجلة، وقال له يوماً: أمهلني ساعة، فقال له: أمهلتك من الساعة إلى قيام الساعة[١]. وبالمثل كان اللغويون والنحالة يتناظرون، وشائعة معروفة مناظرات المبرد مع ثعلب بدار محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد في مسائل اللغة والنحو[٢]. وان تلاميذ ثعلب يتعرضون أحياناً للمبرد في محاضراته بالمسجد، فما يزال يناظرهم ويجادلهم ويحاورهم حتى ينزعهم من أستاذهم ثعلب ويلحقهم بتلامذته وحلقته[٣].

ومن المناظرات التي اشتهرت بأخرة من العصر مناظرة السيرافي ومتى بن يونس المترجم المتفلسف في مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات لسنة ٣٢٠ وكان السيرافي من علماء النحو النابهين، وله كتاب كبير في شرح كتاب سيبويه. وكان موضوع المناظرة النحو والمنطق أيهما أكثر نفعاً في معرفة صحيح الكلام من سقيمه. وقد روي المناظرة أبو حيان التوحيدي ونقلها عنه ياقوت في معجمه[٤]، والطريف أنه يذكر في فاتحتها من كان في المجلس من العلماء والفضلاء، ويذكر أ،هم كتبوا المناظرة في ألواح وبمحابر كانت معهم، مما يعطي صورة عن مجلس المناظرات حينئذ. تبدأ المناظرة بسؤال السيرافي لمتى بن يونس عن المنطق ما يعني به، حتى يكون كلامه معه في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضى وطريقة معروفة، ويجيبه متى: أعني به أنه آلة من الآلات يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان فإنه يعرف به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح. ويقول السيرافي:

"أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالعقل. هبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن من لك بمعرفة الموزون أهو حديد أو ذهب أو شبه (نحاس) أو رصاص ؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر لموزون وغلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدها، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك، وفي تحقيقه كان اجتهادك، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد، وبقيت عليك وجوه، فأنت كما قال الأول: "حفظت شيئاً وضاعت منك

---

[١] السبكي ٢٣/٣.

[٢] تاريخ بغداد ٢٠٨/٥ وإنباه الرواة ١٤١/١ ومعجم الأدباء ١٣٧/٥.

[٣] معجم الأدباء ١١٧/١٩.

[٤] معجم الأدباء ١٩٠/٨.

أشياء" وبعد فقد ذهب عليك شيء ههنا، ليس كل ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما يوزن، وفيها ما يكال، وفيها ما يذرع (يقاس بالذراع) وفيها ما يمسح، وفيها ما يحزر. وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المرئية فإنه أيضاً على ذلك في المعقولات المقروءة، والإحساس ظلال العقول، وهي تحكيها بالتبعيد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة. ودع هذا إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه كماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له قبلوه وما أنكره رفضوه. قال متى: إنما لزم ذلك لأن المنطق يبحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة ويتصفح الخواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس في المعقولات سواء، ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم ؟ وكذلك ما أشبهه". قال السيرافي:

"لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة أنهما ثمانية زال الاختلاف وحضر الاتفاق، ولكن ليس الأمر هكذا، ولقد موهت بهذا المثال، ولكن عادة في مثل هذا التمويه، ولكن ندع هذا. إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة؟".

ويناقش السرافي متى في ترجمة المنطق من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية وأنه ربما حدث حيف على المنطق في أثناء هذا الطريق الطويل الذي سلكه إلى الفصحى، ويقول له: كأنك تقول لا حجة إلا عقول يونان ولا برهان إلا ما وصوفه. ويقول متى إنهم أصحاب عناية بالحكمة ولولاهم ما نشأت العلوم وأصحاب الصناعات. وهو تعميم أكثر مما ينبغي. ويحتد الجدال، ويسأله السيرافي عن حرف واحد من الحروف التي يهتم بها النحو يدور في كلام العرب وهو حرف الواو ومعانيه المتميزة عند النحاة، ويقول له استنبطها من ناحية منطق أرسطاطاليس الذي تدل به وتباهي بتفخيمه وعرفنا ما أحكامه وكيف مواقعه وهل هو على وجه واحد أو وجوه. ويبهت متى، ويقول: هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه، لنه لا حاجة بالمنطقي إلى النحو، أما النحوي فمحتاج إلى المنطق، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ، فإن مر المنطقي باللفظ فبالعرض وإن عبر النحوي بالمعنى فبالعرض، والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضع من المعنى. وينكر عليه السيرافي قوله ويحاول أن يثبت أن النحو يدور على المعاني ويسأله عن معاني الواو وكيف أن يجهلها، وهي حرف واحد، فما باله لو سأله عن معاني جميع الحروف، ويصور لها معانيها وأن المنطق الذي يزهى به متى لا يستطيع بيانها. ثم يعرض عليه قولهم: "زيد أفضل الإخوة"، ويسأله أيجوز أن يقال: زيد أفضل إخوته، ولا يستطيع متى التفرقة بين العبارتين فيقول له إن العبارة الثانية لا تصح في الكلام لأن إخوة زيدهم غير زيد، وزيداً

خارج عن جملتهم، ويقحمه في متشابكات نحوية وعبارات موهمة لا يحلها سوى النحو. ويعرض عليه طائفة من مصطلحات المناطقة والفلاسفة، ويقول له إن كل ذلك لا حاجة للعقل السليم به. وفي الحق أن لسن السيرافي وفصاحته وقدرته على التعبير كل ذلك هو الذي أتاح له الظفر بخصمه في تلك المناظرة الطويلة التي امتدت إلى أكثر من عشرين صحيفة، وقد أردنا بعرضها أن نصور احتدام المناظرات في العصر وأنها تناولت كل جوانب المعرفة.

وحتى الكتب المؤلفة في العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة، حتى على عنواناتها، إذ كثيراً ما تعنون بكلمة الرد أو كلمة النقض، فالكتاب يؤلف رداً أو نقضاً لكتاب آخر، وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات في المساجد، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات، ويوضح ذلك الجاحظ في بعض كتب ورسائله، فقد بنيت في جمهورها على فكرة المناظرات إذ نرى "الحيوان" يبني على مناظرة امتدت إلى أكثر من مجلد بين معبد والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل؟. وله كتاب افتخار الشتاء والصيف وهو مناظرة واضحة بين الفصلين، وكتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم، وهو مناظرة بين العشيرتين القريشتين، وكتاب فخر القحطانية والعدنانية وهو مناظرة بين اليمنية والمضرية. وقد يمدح الشيء في رسالة ثم يذمه في أخرى، وكأنه يكتب مناظرة في رسالتين مثل رسالته في مدح النبيذ ورسالته في ذم النبيذ ومثل رسالته في مدح لكتاب ورسالته في ذم الكتاب، ومثل رسالته في مدح الوراق (بائع الكتب) ورسالته في ذم الوراق. وله كتب مختلفة يجعل عنوانها كلمة الرد مثل كتاب الرد على المشبهة وكتاب الرد على النصارى وكتاب الرد على اليهود، وله كتاب العثمانية وكتاب الرد على العثمانية، وله كتاب نقض الطب. ومن رسائله التي أدارها على المناظرة رسالته "فخر السودان على البيضان" ورسالته "مفاخرة الجواري والغلمان". وقد لا توضع فكرة المناظرة أو الرد والنقض أو المدح والذم على الكتاب والرسالة، فإذا قرأنا فيهما وجدناهما يأخذان بكل مناظرة كبيرة مثل كتاب التربيع والتدوير، نراه فيه ينتصر للقصر تارة وللطول تارة ثانية، وتارة ثالثة للتوسط بين الطرفين المتناقضين.

وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية، فدائماً مناظرات ومجادلات في كل مكان وفي كل موضوع علمي أو فلسفي أو أدبي، والمناظر ينتصر تارة، وتارة ينهزم في تلك الساحة الفكرية الكبيرة: بغداد، وهم لا يكلون ولا يملون ولا يتوقفون فدائماً جدل وحوار وتشعيب لدقائق المعاني وغوص على خفياتها وكوامنها المستورة، ولا يمنع الانهزام يوماً صاحبه من التجمع للمناظرة والتحفز للحوار في يوم ثان أو لقاء ثان، بل قد ينهزم المناظر وينتصر في المجلس الواحد مراراً، وفي هذا الحوار الواسع ومعاركه الدائرة دون توقف يقول ابن الرومي مشيراً إلى المتناظرين وجدالهم العنيف:

لذوي الجدال إذا غدوا لجدالهم حجج تضل عن الهدى وتجور

وهم كآنية الزجاج تصادمت فهوت وكل كاسر مكسور

ويبدو ابن الرومي نفسه في شعره مناظراً كبيراً، إذ تطبع جوانب من شعره- كما أسلفنا- بطوابع الجدال وما يطوي فيه من قدرة وبراعة على نسج الأدلة تارة ونقضها تارة أخرى. ومر بنا ذمة للورد ونقضه لمحاسنه وقلبها مساوئ ذميمة في قصيدته "النرجس والورد" وهي مناظرة شعرية طريفة.

وتسرى هذه الروح في قصص وحكايات وأخبار جمعت ونسقت في الكتاب المسمى بكتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ، لنه يفتتح بكلمة: "قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ" وتتوالى نقول عنه في فضائل الكتب ووصف فوائدها، نجدها مبثوثة في كتاب الحيوان. ولعل هذا الاستهلال هو الذي جعل القدماء يظنون أن الكتاب من تأليف الجاحظ، وأيضاً فإنه ينقل عنه في بعض فصوله نقولا مختلفة. ولكن من يعرف أسلوب الجاحظ المطرد في كتبه يعرف تواً أن الكتاب ليس له، والطريف أن صاحبه ذكر في مستهله عن الجاحظ قوله في بعض رسائله: "إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم، وهم يعرفون براعته ونصاعته، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على لتقديم والتأخير والحط والرفع والترهيب والترغيب فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة ... وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إلى وموسوماً بي. وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب لاستنساخه وقراءته على، ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنه لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة، ويأتم بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمي ولم ينسب إلى تأليفي". وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المؤلف رأى أن يحاكي الجاحظ في إنكاره لاسمه أحياناً على بعض آثاره، فنسبه إليه، ليرى راي الناس فيه وحكمهم عليه. وربما كان هو نفس مؤلف كتاب المحاسن والمساوي الذي سنعرض له عما قليل. ومما يشهد بأن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو

لمؤلف تال لعصره أن نجد فيه نقولا عن عبد الله بن المعتز[١]، وكان في الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ.

والكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات في الأخلاق والشمائل، فكل خلق أو كل شيء تعرض محاسنه ثم تعرض معايبه، وتصور المعايب والمحاسن في أخبار وأقاصيص وحكايات، تلتقي فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر. وفي مقدمتها الثقافة الإسلامية، وهي تتضح في الاقتباس أحياناً من الذكر الحكيم[٢] والاستشهاد الدائم بالأحاديث النبوية[٣]، وتتسع الثقافة الدينية لتجلب بعض أقوال الزهاد أو بعض قصص الأنبياء أو بعض وصايا من التوراة من مثل: "اشكر من أنعم عليك، وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعم إذا شكرت ولا إقامة لها إذا كفرت. والشكر زيادة في النعم وأمان من الغير"[٤] وبجانب ذلك تلقانا عناصر كثيرة من الثقافة العربية في مقدمتها الأمثال[٥]، والأشعار وهي أكثر من أن ندل عليها في موضع معين من الكتاب. وتكثر أخبار الجاهليين وأقاصيصهم المصورة لمكارم أخلاقهم أو مذامها، وبالمثل أخبار حكام العرب وحكاياتهم على توالي الحقب من إسلاميين وعباسيين وخاصة حكام بني أمية والرشيد والمأمون، وتكثر أخبار الأعراب وأقاصيصهم ويلمع فيها اسم الأصمعي وتلقانا حكم وأقاصيص منقولة عن بعض كتب الهند من مثل: "ليس لكذوب مروءة ولا لضجور رياسة ولا لملول وفاء ولا لبخيل صديق[٦]"، وبالمثل تلقانا أقاصيص وأخبار وحكم منقولة عن اليونان من مثل: "كلم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله، فقال أنساني أول كلامك طول عهده وفارق آخره فهمى لتفاوته، ولما قدم بكت امرأته فقال لها: ما يبكيك ؟ قالت: تقتل ظلماً قال: وكنت تحبين أن أقتل مظلوماً أو أقتل ظالماً[٧]". ولملوك الفرس ووزرائهم شطر كبير من الأقاصيص والأخبار. ونختار باباً من أبواب المحاسن نسوق منه ما يصور سيول هذه الثقافات، وهو باب محاسن السخاء، ومما جاء فيه[٨]:

---

[١] المحاسن والآضداد (طبع دار مكتبة العرفان ببيروت) ص ١٣٨ ، ١٦٩.

[٢] المحاسن والأضداد ص ٣٩ ، ٤٢.

[٣] أنظر مثلاً ص ٣٢.

[٤] المحاسن والأضداد ص ٣١.

[٥] أنظر مثلاً ص ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٧٥.

[٦] المحاسن والأضداد ص ٣٨.

[٧] المحاسن والأضداد ص ٢٢.

[٨] المحاسن والأضداد ص ٦٢ وما بعدها .

"روي عن نافع قال: لقي يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال له: أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم، قال: أحبهم إلى كل مؤمن بخير وأبغضهم إلي كل منافق سخي قال: ولم ذاك ؟ قال إبليس: لأن السخاء خلق الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: السخي قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل، وأدوأ الدواء البخل. وقال صلى الله عليه وسلم: ما أشرقت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان: اللهم عجل لمنفق خلفاً ولمسك تلفاً، وملكان يناديان: أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى. وعن الشعبي قال: قالت أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك: لو كان البخل قميصاً ما لبسته أو طريقاً ما سلكتها، وكانت تعتق في كل يوم رقبة (عبداً) وتحمل على فرس مجاهداً في سبيل الله ... وقال بهرام جور: من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فلينظر إلى ما جاد الله به على الخلق من المواهب الجليلة والرغائب النفيسة ... وقال الموبذان لأبرويز (ملك فارس): أكنتم تمنون أنت وآباؤك بالمعروف وتترصدون عليه المكافأة ؟ قال: ولا نستحسن ذلك لعبيدنا، فكيف نرى ذلك وفي كتاب ديننا (كتاب زرادشت: الأفستا) من فعل معروفاً خفياً وأظهره ليتطول به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ألا نعده من الأبرار ولا نذكره في الأتقياء والصالحين. وسئل الإسكندر: ما أكبر ما شيدت به ملكك ؟ قال: ابتداري إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم. وكتب أرسطاليس في رسالته إلى الأسكندر: أعلم أنم الأيام تأتي على كل شيء فتخلقه (فتبليه) وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ في قلوب الناس، فأودع قلوبهم محبة بأثرك تبقى بها حسن ذكرك وكريم فعالك وشريف آثارك. ولما قدم بزرجمهر (وزير فارسي) إلى القتل قيل له: إنك في آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة، فتكلم بكلام تذكر به، فقال: أي شيء أقول، الكلام كثير ولكن إن أمكنك أن تكون حديثاً حسناً فافعل. وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابي في الضيافة فقال الأعرابي: نحن أقرى للضيف، قال: وكيف ذلك ؟ قال: لأن أحدنا ربما لا يملك إلا بعيراً فإذا حل به ضيف نحره له، فقال له الأعجمي: فنحن أحسن مذهباً في القرى (الضيافة) منكم، قال: وما ذلك، قال: نحن نسمي الضيف: مهمان، ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكنا له. وقال المأمون: الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود. وشكا رجل إلى إياس بن معاويه (قاضي البصرة المشهور في العصر الأموي) كثرة ما يهب ويصل وينفق، فقال: إن النفقة داعية إلى الرزق، وكان جالساً بين بابين فقال للرجل: أغلق هذا الباب، فأغلقه، فقال: هل تدخل الريح لبيت قال: لا، قال: فافتحه، ففتحه، فجعلت الريح تخترق البيت، فقال: هكذا الرزق أغلقت البيت فلم تدخل الريح، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق. ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى

فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه، وقال له: إنك أقرضتني ناقتك فاحتكم على، قال الرجل: راحلتين قال حاتم: لك عشرون أرضيت ؟ قال: نعم وفوق الرضا ... وقيل في المثل هو أجود من كعب بن مامة الإيادي، وبلغ من جوده أنه خرج في ركب فيهم رجل من بني النمر في شهر قيظ، فضلوا وتصافنوا (تقاسموا بالحصص) ماءهم، فجعل النمري يشرب نصيبه ويظهر أنه عطشان، فكان كعب إذا أصاب نصيبه قال للساقي: آثر أخاك النمري حتى أضر به العطش فلما رأى ذلك استحث راحلته وبادر حتى وصل إلى ورد ماء، وقيل له: رد كعب، إنك وارد، ولكن العطش غلبه فمات ... ومن قوله أبي تمام:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد به فليتق الله سائله"

وإنما سقنا ذلك كله لندل على المزيج الثقافي الذي يتكون منه كتاب المحاسن والأضداد، وهو مزيج به عناصر قصيصه عن الأنبياء وعناصر إسلامية من الحديث النبوي وعناصر عربية من أخبار العرب رجالاً ونساء، وعناصر فارسية من أخبار الفرس وحكاياتهم وعناصر يونانية من أخبار الإسكندر المقدوني وكلام أرسطاليس. وبي السطور نحس شعوبية المؤلف حين يعلي ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عرف عنهم من خصلة الكرم والجود. ولم يكفه ذلك فقد جعل حاتماً يذبح ناقة ضيفه ليقدم له الغداء والعشاء، وإن عاد يقول إنه أعطاه بدلاً منها عشرين ناقة، فكأنه يريد أن يستر شعوبيته. ولعل هذا الجانب في الكتاب هو الذي جعل المؤلف لا يظهر اسمه، حتى لا يؤخذ به. وفي هذه الفقرة الطويلة ما يصور سيول الأخبار وما قد يكون فيها من قص. ودائماً نلتقي في الكتاب بطرائف من الحكم والأخبار، على نح ما جاء في محاسن حفظ اللسان إذ قيل: إنه تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رميت عن قوس واحد، قال كسري: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال ملك الهند: إذا تكلمت بكلمة ملكتني وإن كنت أملكها. وقال قيصر: لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت. وقال ملك الصين: عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول[١]. وفي الكتاب قصص كثير متنوع في موضوعاته وفي مصادره وموارده، ويكثر فيه القصص عن المرأة العربية، وكذلك عن المرأة الفارسية، فمما جاء فيه عن المرأة العربية قصة رواها العتبي على هذا النمط[٢]:

"قال العتبي: كنت كثير التزوج فمررت بامرأة فأعجبتني، فأرسلت إليها ألك زوج ؟ قالت: لا فصرت إليها، فوصفت لها نفسي، وعرفتها موضعي فقالت: حسبك قد عرفناك، فقلت لها: زوجيني نفسك، قالت نعم: ولكن ههنا شيء هل تحتمله ؟ قلت: وما هو ؟ قال: بياض في مفرق

---

[١] المحاسن والأضداد ص ٢١.

[٢] المحاسن والأضداد ص ١٨٤.

رأسي قال: فانصرفت، فصاحت بي ارجع، فرجعت إليها، فأسفرت عن رأسها. فنظرت إلى وجه حسن وشعر أسود، فقالت: إنا كرهنا منك، عافاك الله، ما كرهت منا، وأنشدت:

أرى شيب الرجال من الغواني بموضح شيبهن من الرجال"

وهي قصة طريفة، وفي الكتاب قصص عن النساء ووفائهن وكيدهن، تكثر فيها عناصر التشويق، مما يجعلها قصصاً بديعة من ذلك قصة أضيفت إلى شيرين الملكة الفارسية المشهورة ملخصها أن زوجها كسرى أبرويز أتاه صياد بسمكة كبيرة[١] فأعجب به وأمر له بأربعة آلاف درهم، فقالت له شيرين: أمرت لصياد بأربعة آلاف درهم فإن أمرت بمثلها لرجل من وجوه حاشيتك قال: إنما أمر لي بمثل ما أمر به للصياد. فقال لها كيف أصنع وقد أمرت له بما أمرت ؟ قالت إذا أتاك فقل له: أخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنث ؟ فإن قال: أنثى فقل: لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بالذكر، وإن قال: ذكر، فقل له: لا تقع عيني عليك حتى تأتيني بالأنثى، فلما غدا الصياد على الملك قال له: أخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى ؟ قال: بل أنثى قال: فأتيني بذكرها، قال: عمر الله الملك إنها كانت بكراً لم تتزوج بعد، فقال له الملك: حسناً، حسناً، وأمر له بأربعة آلاف درهم، وأمر أن يكتب في ديوان الحكمة: إن الغدر ومطاوعة النساء يورثان الغرم. وبعض قصص النساء بها غير قليل من الفحش، وقد تذكر أشياء غريزية تنبو عن الأذواق[٢] على نحو ما يجري في بعض قصص ألف ليلة وليلة، وكانت قد ترجمت، فربما تأثر المؤلف بها، وربما تأثر المؤلف في ذلك بالشعر المفحش الكثير الذي كان موجوداً في العصر. وقد يكون ذلك من أسباب تنكر المؤلف وإخفائه لاسمه. ويلقانا قصص ديني عن بعض الزهاد، وقد نلتقي بحكايات صوفية، بل قد نلتقي بما يصور كرامات المتصوفة التي سبق أن تحدثنا عنها التي كان ينكرها وشيوخهم الأجلاء، فمن ذلك ما رواه الكتاب، قال[٣]: "عن أبي مسلم الخولاني قال: إنه خرج إلى السوق بدرهم يشتري لأهله دقيقاً، فعرض له سائل، فأعطاه بعضه، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقي، فأتى درب النجارين، فملأ جرابه أو مزوده من نشارة الخشب، لتنتفع بها امرأته في إيقاد التنور وأتى منزله، فألقاه، وخرج هارباً من زوجته. وأخذته فإذا هو دقيق أبيض جواري (فاخر) لم تر مثله، فعجنته وخبزته، فلما جاء ووجد الخبز سألها: من أين لك هذا الخبز، قال له: من الدقيق الذي جئتنا به"!. ويذكر الكتاب كرامة لسفيان الثوري لا تقل غرابة عن الكرامة السابقة. ولا نريد أن نسترسل في نقل هذه القصص الكثير الذي يزخر به كتاب المحاسن والأضداد، إنما نريد أن نوضح كيف أن هذا القصص يحتوي على

---

[١] المحاسن والأضداد ص ٢٠١.

[٢] أنظر مثلا القصة في ص ١٩٣ و ص ٢١٤.

[٣] المحاسن والأضداد ص ١٤١.

عناصر مشوقة كثيرة، وأنه كان يدخل في الأدب الشعبي العام، ولذلك يخلو من استعمال السجع والأساليب المنمقة، والطريف أنه عرض ليجسم وجهين متقابلين في كل خلق وكل خصلة، فمثلاً الصدق له محاسنه، ولهذه المحاسن أقاصيصها وله معايبه، ولهذه المعايب أقاصيصها. وبالمثل كل فضيلة، فوفاء النساء محاسنه أقاصيصها ولمعايبه أقاصيص تقابلها وتناقضها أشد المناقضة. وبذلك يأخذ عرض هذه الأقاصيص وما يتصل بها من الأخبار والأقوال والأشعار شكل مناظرات أدبية لا تعتمد على الجدال والحوار بالدليل ضد الدليل والحجة العقلية ضد الحجة العقلية، وإنما على الحوار والجدال بالخبر ضد الخبر والشعر ضد الشعر والقصة ضد القصة والحكاية ضد الحكاية.

ويلتقي بهذا الكتاب في موضوعاته وأكثر مادته كتاب المحاسن والمساوي لإبراهيم بن محمد البيهقي، وقد أغفلت الحديث عنه كتب التراجم، غير أنه يفهم مما ذكره عن الخليفة المقتدر في آخر حديثه[١] عن محاسن المسامرة أنه ألف كتابه في زمنه. وهو يستهل كتابه بالحديث عن فضائل الكتب ووصف محاسنها مثل المحاسن والأضداد، ويماثله أيضاً في النقل كثيراً عن الجاحظ. ثم يفتح طائفة من الفصول لم ترد في الكتاب السالف يتحدث فيها عن محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم وفضائله ومساوئ المتنبئين ومحاسن الخلفاء الراشدين ومناقبهم ومساوئ من عادى على بن أبي طالب ومحاسن ابنيه الحسن والحسين ومساوئ قتلة الأخير ومحاسن السابقين إلى الإسلام ومساوئ المرتدين ومحاسن كلام الحسن بن علي وعبد الله بن العباس وفضائل بني هاشم ومحاسن الافتخار بالرسول. وكل هذه المقدمات ينفرد بها هذا الكتاب بالقياس إلى كتاب المحاسن والأضداد، وبمجرد أن نفرغ منها نجد الكتابين يلتحمان، حتى ليصبح كتاب المحاسن والمساوئ كأنه نسخة جديدة لكتاب المحاسن والأَضاد، مما يؤكد أن مؤلفهما واحد، وكأن البيهقي ألف الكتاب الأول، وأقحم فيه ما أقحم من أفكار الشعوبية والفحش في القصص، ثم رأى أن يخرجه إخراجاً جديداً وينسبه إلى نفسه، منحياً منه ما يصور شعوبيته وما ينبو عن الأذواق السليمة من القصص المفحش مع وضع المقدمات آنفة الذكر. ويبدو منها أنه كان يكن نزعة شيعية، وإن لم يبرزها بقوة خوفاً على نفسه من المقتدر وحواشيه. وهو في هذه النسخة الجديدة للكتاب يذكر ابن المعتز[٢] على نحو ذكره له في النسخة القديمة أو بعبارة أخرى في المحاسن والأضداد.

وطبيعي أن تكون مصادر هذا الكتاب هي نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ، لنه ليس أكثر من نسخة مجددة له، وغاية ما هناك أنه دخله تنقيح وتهذيب كثير، وإذن فكل ما قلناه

---

[١] أنظر المحاسن والمساوي (نشر مكتبة نهضة مصر ومطبعتها) ٢٣٨/٢.

[٢] راجع المحاسن والمساوي ص ٢٧٦/١ ، ٤٤/٢ ، ٤٥.

عن المزيج الثقافي في المحاسن والأضداد ينطبق بحذافيره على هذا الكتاب، ففيه بعض آي القرآن والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة والزهاد، وفيه أخبار وأقاصيص منقولة عن الأنبياء وعن عيسى وحوارييه، ومن طريف ما نقله عنه، قوله[١]:

"إن ابن آدم خلق في الدنيا في أربع منازل، هو في ثلاثة منها واثق بالله عز وجل، وهو في الرابعة سيئ الظن، يخاف خذلان الله عز وجل إياه، فأما لا منزلة الأولى فإنه خلق في بطن أمه خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة، ينزل الله جل وعز عليه رزقه في جوف ظلمة البطن. فإذا خرج من ظلمة البطن وقع في اللبن لا يخطو إليه بقدم ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض بقوة ويكره عليه إكراهاً، حتى ينبت عليه عظمه ودمه ولحمه. فإذا ارفع من اللبن وقع في المنزلة الثالثة في الطعام بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام، فإن مات أبواه من غير شيء عطف عليه الناس، هذا يطعمه، وهذا يسقيه، وهذا يؤويه. فإذا وقع في المنزلة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلاً خشي ألا رزق، فيثب على الناس، فيخون أماناتهم، ويسرق أمتعتهم ويكاثرهم على (يغصبهم) أموالهم مخافة خذلان الله عز وجل إياه".

والنص موجود في المحاسن والأضاد[٢]، ولكن العبارة هنا نقحت وهذبت بصور مختلفة، وكذلك النصوص الأخرى حين نعارض الكتابين فيها بعضهما على بعض نجد دائماً هذا التنقيح، مما يشهد بأن يداً واحدة هي التي كتبتهما، وأن أولهما كان أبه بمسودة واتخذ الثاني شكل نسخة مهذبة منقحة قد صفيت وأخليت من كل الشوائب اللغوية وغير اللغوية، ودخلتها إضافات من الأمثال والأحاديث النبوية والأشعار والأخبار والأقاصيص، كهذه الأقصوصة التي تلقانا في الحديث عن محاسن الولايات، وهي تمضي على هذا النمط[٣]:

"دخل محمد بن واضح دار المأمون، وخلفه أكثر من خمسمائة راكب، كلهم راغب إليه وراهب منه، وهو إذ ذاك يلي عملاً من أعمال الساد (الأرض المزروعة) في العراق. فدعا به المأمون فلما حضر بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين أعفني من عمل كذا وكذا، فإنه لا قوة لي عليه، فقال له المأمون: قد أعفيتك. واستعفى من عمل آخر. وهو يظن أنه لا يعفيه. فأعفاه، حتى خرج من كل عمل في يده في أقل من ساعة، وهو قائم على قدميه. فخرج وما في يده شيء من عمله. فقال المأمون لسالم الحوائجي: إذا خرج فانظر إلى موكبه وأحص من بقي معه- وكان المأمون قد رآه من مستشرف له حين أقبل- فخرج سالم وراء محمد بن واضح وقد استفاض

---

[١] لمحاسن والمساوي ٤٥٩/١.

[٢] المحاسن والأضداد ص ١٢٨.

[٣] المحاسن والمساوي ٢٧٣/١ .

الخبر بعزله عن عمله. فنظر فإذا هو لا يتبعه أحد إلا غلام له بغاشية[١]. فرجع سالم إلى المأمون فأخبره، فقال: ويلهم لو تجملوا له ريثما يرجع إلى بيته كما خرج منه، ثم تمثل فيهم:

وم يجعل المعروف في غير أهله يلاق الذي لاقى مجير أم عامر[٢]

ثم قال: صدق رسول الله وكان للصدق أهلاً حين قال: لا تنفع الصنيعة إلا عندي ذي حسب أو دين".

ويفيض هذا الكتاب كما تفيض مسودته: "المحاسن والأضداد" بكثير من أحوال العصور العربية السياسية والاقتصادية والحضارية، وخاصة العصر العباسي، ونرى البيهقي يفتح فيه- كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع- فصلاً طويلاً عن أصناف[٣] المكدين وأفعالهم وهو فيه ينقل عن الجاحظ وما كتبه عنهم في مصنفه البخلاء، وقد عرض فيه حيلهم وتجوالهم في البلدان ونوادرهم، فمن ذلك[٤]:

"أنه أتى سائل داراً يسال منها، فأشرفت عليه امرأة من غرفة، فقال لها: يا أمة الله بالله أن تصدقي علي بشيء، قالت: أي شيء تريد ؟ قال: درهماً، قالت: ليس عندي، قال: فدانقاً (جزءاً من درهم)، قالت: ليس عندي، قال: ففلساً (جزءاً من دانق) قالت: ليس عندي، قال: فكسوة، قالت: ليس عندي، قال: فكفا من دقيق، قالت: ليس عندي، قال: فزيتاً ... حتى عد كل شيء يكون في البيوت، وهي تقول ليس عندي، فقال لها: فما يجلسك عندك، مرى، اسألي معي".

وواضح أننا لا نعثر في المادة الأدبية التي يحتويها هذا الكتاب وسالفه على شيء من السجع أو التكلف لألوان البديع أو لأي زخرف أو تنميق، فهي مادة سهلة، ليس فيها أي حليات لفظية ولا غير لفظية، وليس فيها أي صعوبات لغوية، وهي لذلك تعد مادة شعبية، أو قل إن الكتابين مصنفان كبيران من الأدب الشعبي في العصر، وضعهما أديب ممتاز في شكل مناظرات ومحاورات، حتى يشوق إلى قراءتهما. ولم يكتف بهذا التشويق العام، فقد أدخل في الأخبار والأقاصيص عناصر كثيرة منه تدفع العامة والخاصة إلى الشغف بقراءة الكتابين.

٤

---

[١] غاشية: غطاء .

[٢] أم عامر: الضبع .

[٣] المحاسن والمساوي ٤١٣/٢.

[٤] المحاسن والمساوي ٤١٧/٢.

الرسائل الديوانية

مر بنا في العصر العباسي الأول كيف أن الدواوين كانت كثيرة ومتنوعة، فديوان للخراج، وديوان للنفقات وديوان للضياع وديوان للرسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش أو دواوين، ودواوين لشرقي الدولة وغربيها، ولكل ولاية ديوان وأحياناً دواوين. وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذي يشرف عليها. وهذه الصورة العامة للدواوين في سامراء وبغداد كانت تقابلها دواوين أخرى في حاضرة كل ولاية. وكان لأولياء العهد والوزراء دواوين بدورهم، وكذلك لكبار القواد، وحتى نساء الخلفاء كان لهم دواوين يقوم عليها كتاب ينظرون في الدخل والخرج والنفقات.

وكان ذلك عاملاً قوياً في نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون، وخاصة أنها كانت تعود عليهم برواتب وأرزاق ضخمة. وكان الكاتب في دواوين الدولة إذا أظهر نبوغاً ارتقى سريعاً، وما يزال يرتقي حتى يصبح رئيس مجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً يدبر أمور الدولة كلها، فإنه فاتته الوزارة أصبح والياً لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولي- فيما ولي- البصرة. وكثير من الولاة كانوا يتقنون الكتابة مثل محمد بن عبد الله بن طاهر وأخيه عبيد الله حاكمي بغداد بالتعاقب.

وكانت الدواوين في سامراء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة، يفد عليها الشباب، ويختبرون اختباراً دقيقاً، فمن نجح في الاختبار وظف فيها، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم. ويدبج بعض الرسائل، فإذا نالت رسالة حظوة من رئيس الديوان تم له سعده. وربما ألحقوهم ببعض الولاة أو العمال، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين. ولا ريب في أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة، وهي تنافس دفع إلى التثقف الواسع بكل ألوان الثقافات، وفي مقدمتها الثقافات اللغوية، ومر بنا كيف أن ابن قتيبة ألف لهم في ذلك كتابه "أدب الكاتب". ولا بد من إتقان الفقه لحاجة الكاتب إليه في شئون الخراج، وأيضاً لا بد من إتقان الحساب لنفس الغاية. وكانوا يكبون خاصة على علوم التنجيم والمنطق والهندسة وعلى الفلسفة مما جعل ابن قتيبة يظن بهم الظنون وأنهم يغرقون على آذانهم في علوم اليونان وفلسفتهم حتى ليفوتهم إتقان العربية. وتوفروا على ما ترجم من الثقافة الهندية من الحكم والقصص وكذلك على ما ترجم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم وزرائهم. فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزودون به، حتى يستمدوا منه في معانيهم ومنطقهم. وكانوا يلتزمون الوضوح لن رسائلهم توجه إلى العامة ولا بد أن تفهم ما تسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان. كما كانوا يلتزمون فيها شيئاً من التنميق حتى تنال استحسان من يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء والقواد. وكانت الرسائل تتناول جميع شئون الدولة من منشورات تتصل بأهل الذمة أو الرعية ومن ولاية عهود أو بيعة لخليفة أو خلع أو دعوة إلى

الجهاد في سبيل الله أو توليه وزير أو وال أو تنويه بموسم حج أو عيد أو أخبار الولايات أو أمر بمعاقبة بعض الجناة. وتفننوا في المقدمات وخاصة في التحميدات وما اتصل منها برسالة الخميس التي كانت تكتب إلى الولايات حين يستولي خليفة على مقاليد الحكم.

ونحن نعرض طائفة من الكتاب مرتبين على عهود الخلفاء لنتبين من خلال كتاباتهم روعة بيانهم من جهة وما حدث من تطور في الكتابة الديوانية وأساليبها في العصر. ومعروف أن أول كاتب نابه يلقانا في العصر هو إبراهيم بن العباس الصولي الذي حرر أكثر ما صدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل في الفتوح، ولن نقف عنده لأننا سنخصه بحديث مفصل في الفصل التالي. ومن كتاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي استكتبه سنة ٢٣٦، ثم جعله وزير وللبحتري فيه مدائح مختلفة، وقد احتفظ له الطبري برسالة كتب بها عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد يأمره بضرب رجل ألف سوط لما صح من شهادة شهود كثيرين عليه بشتمه لأبي بكر وعمر والسيدة عائشة والسيدة حفصة زوجي الرسول، والرسالة تخلو من السجع ومحاولة التنميق[١].

ويدخل عصر المنتصر، ويستوزر أحمد بن الخصيب، وكان كاتباً أديباً، مما جعله يعهد إليه بكتابة الكتب التي تصدر عنه، وكان من أوائلها كتاب في الجهاد كتبه لسبع ليال خلون من المحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتجه وصيف إلى الغزو في أرض الروم، وفيه يقول[٢]:

"قال عز وجل آمراً بالجهاد مفترضاً له: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ). وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حال لا يكابد في الله نصباً ولا أذى، ولا ينفق نفقة ولا يقارع عدواً، ولا يقطع بلداً، ولا يطأ أرضاً، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجر مأمول، قال الله عز وجل: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)..وليس من شيء يتقرب به المؤمنون إلى الله عز وجل من أعمالهم، ويسعون به في حط أوزارهم وفكاك رقابهم، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهاد عنده أعظم منه منزلة، وأعلى لديه رتبة،

---

[١] طبري ٩/٢٠٠.

[٢] طبري ٩/٢٤١.

وأولى بالفوز في العاجلة والآجلة، لن أهله بذلوا لله أنفسهم، لتكون كلمة الله هي العليا، وسمحوا بها دون من وراءهم من إخوانهم وحريم المسلمين وبيضتهم ووقموا (قمعوا) بجهادهم العدو".

وصياغة الكتاب جزلة رصينة، وفيها محاولة واضحة للدقة في التعبير وأن يروق السمع والذهن، ولكن لا بسجع، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة. مما يشهد لابن الخصيب بأنه كان كاتباً مجيداً. واحتفظ الطبري له بكتاب ثان خلع فيه المنتصر أخويه المعتز والمؤيد[١]، نحا فيه منحى الكتاب السابق في الصياغة.

ويتولى المستعين الخلافة، ويتخذ سعيد بن حميد أحمد الكتاب البلغاء على ديوان رسائله، وسنخصه بحديث مستقل في الفصل التالي. وسرعان ما يتولى المعتز الخلافة، ويستوزر أحمد بن إسرائيل، ويقول الفخري إنه أحد الكتاب الحذاق الأذكياء[٢]. وكان من كبار ولاته وأقربهم على نفسه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد، وكان أديباً بارعاً، وفي الطبري رسالة له وجه بها على عمال النواحي حين أعطاهم المعتز الحق في التنكيل بأعدائه، وهي تمتلئ وعيداً وتهديداً على هذا النمط[٣]:

"أما بعد فإن زيع الهوى صدف بكم عن حزم الرأي، فأقحمكم حبائل الخطأ، ولو ملكتم الحق عليكم وحكمتم به فيكم لأوردكم البصيرة ونفى غيابه[٤] الحيرة، والآن فإن تجنحوا للسلم تحقنوا دماءكم وترغدوا عيشكم ويصفح أمير المؤمنين عن جريرة جارمكم[٥]، ويسبغ النعمة عليكم، وإن مضيتم على غلوائكم وسول لكم الأمل أسوأ أعمالكم فأذنوا بحرب من الله ورسوله بعد نبذ المعذرة إليكم وإقامة الحجة عليكم. ولئن شنت الغارات وشب ضرام[٦] الحرب، ودارت رحاها على قطبها وحسمت[٧] الصوارم أوصال حماتها، واستجرت[٨] العوالي من نهمها، ودعيت نزال[٩]، والتحم الأبطال، وكلحت[١٠] الحرب عن أنيابها أشداقها، وألقت للتجرد عنها قناعا. واختلفت أعناق

---

[١] طبري ٢٤٧/٩.

[٢] الفخري ص ١٨٢.

[٣] طبري ٣٦٧/٩.

[٤] غيابه: غشاوة.

[٥] جريرة جارمكم: جريمة مذنبكم.

[٦] ضرام: وقود .

[٧] حسمت: قطعت .

[٨] استجرت: اجترت .

[٩] دعيت نزال: كناية عن احتدام الحرب .

[١٠] كلحت: كثرت .

الخيل، وزحف أهل النجدة إلى أهل البغي لتعلمن أي الفريقين أسمح بالموت نفساً، وأشد عند اللقاء بطشاً، ولات حين معذرة، ولا قبول فدية، وقد أعذر من أنذر (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)".

وصياغة الرسالة صياغة مضبوطة محكمة، ويكثر فيها التقابل بين العبارات ويكثر التفاصح واستخدام كلمات القرآن الكريم وبعض آية مثل: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) ومثل: (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) و (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) مما يدل على تمكن الكاتب من العربية والثقافة الإسلامية والقرآنية، وقد استخدم كلمة: "واستجرت" بدلاً من كلمة: "واجترت" دلالة على قدرته في القياس والتصريف، وأتى بأمثال مختلفة مثل: "ودعيت نزال" وهو مثل يضرب لاحتدام الحرب، ومثل: "من أعذر فقد أنذر". وشيء أهم من ذلك كله واضح في الرسالة وضوحاً بيناً، وهو كثرة الصور فيها مثل غيابة الحيرة وإسباغ النعمة وضرام الحرب و "دارت رحاها على قطبها، وحسمت الصوارم أوصال حماتها واستجرت العوالي من نهمها... وكلحت الحرب عن أنيابها أشداقها وألقت للتجرد عنها قناعها". صور متراكمة، قصد إليها الكاتب قصداً ليدل على براعته الفنية، وأنه ليس الشعر وحده الذي يستطيع أن يحمل حشود الصور، فالنثر بدوره يمكن أن يحمل منها ما يحمل الشعر، بل يمكن أن يزداد حمله وأن يصبح صوراً خالصة يأخذ بعضها بزمام بعض.

ويخلف المعتز المهتدي، وهو أعظم خلفاء العصر سيرة حميدة وتقوى وورعاً وعبادة، وكان كما مر بنا يخطب في الناس كل جمعة يعظهم ويذكرهم الآخرة، وكان يعمل في دواوينه سعيد بن عبد الملك، ويقول صاحب الفهرست: البلغاء الحديثون ثلاثة: الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولي وسعيد بن عبد الملك[١]، وله كتاب في التنويه بخليفة وخطابته في عيد الفطر. ولا نرتاب في أنه يريد المهتدي، لأن من وليه من خلفاء القرن الثالث كانوا يندبون عنهم من يخطب يوم الجمع، ومر بنا ما أصاب المعتضد من حصر حينما حاول الخطابة في أحد الأعياد، فالمهتدي المقصود بتلك الرسالة، وفيا يقول[٢]:

"أدام الله صلاح الأمة ولا أخلاها من بركة رعايته، ومن ولايته وسياسته، ولا زالت في كنف السلامة بسلامته، وظل العافية بعافيته، وعلى سبيل نجاة هدايته. وقد كتبت إلى أمير المؤمنين فيما وليه الله به في مخرجه إلى عيده من يوم فطره وما وفقه له من التقرب إليه بوسائل التذلل في طاعته والاجتهاد في شكره والمناصحة في مخاطبة من حضره وإنصاتهم لوعظه وتذكيره، وما وليه الله به من العافية والسلامة الشاملة، والنعمة الكاملة، والعز الموصول بالسكينة ... مناً من

---

[١] الفهرست ص ١٨٨.

[٢] جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ٣٠٠/٤.

الله خص به خليفته وأعطاه فضل مزيته بما وفقه له من العدل والنصفة، والبر والمرحمة، والعطف والرأفة".

وفي هذه الفقرة ما يصور كيف أخذ كتاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن الثالث الهجري يصطنعون السجع في جوانب من رسائلهم على نحو ما نرى الآن عند سعيد بن عبد الملك، وحقاً أخذ السجع يدخل في الرسائل الشخصية منذ القرن الثاني كما صور ذلك كتابنا العصر العباسي الأول على نحو ما يلقانا في رسالة ابن سيابة المشهورة، ولكن الرسائل الديوانية ظلت تكتب بأسلوب مرسل، يشيع فيه أحياناً الازدواج، أما السجع فيندر أن نلتقي به في تلك الرسائل، وكأن الأذواق أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره في الكتابة الديوانية لهذا العصر.

ويخلف المهتدي المعتمد، ويظل وزيراً له، كما كان وزيراً لسابقه، سليمان بن وهب، ويقول[١] الفخري عنه: أحد كتاب الدنيا ورؤساؤها فضلاً وأدباً وكتابه وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم، ويروي عنه أنه كان يكتب، في أول عهده بالعمل، بدواوين الدولة بين يدي محمد بن يزداد وزير المأمون. وكان إذا انصرف في الليل إلى داره ناب عنه في دار لمأمون أحد الكتاب الصغار بالنوبة لمهم عساه يعرض في الليل. يقول سليمان: وبينما أنا نائب عنه في إحدى الليالي إذ طلبني المأمون، فقال لي: اعمل نسخة في المعنى الفلاني ،ووسع بين سطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد إصلاحه، فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب وبيضته وأحضرته إليه، فلما رآني قال: كتبت مسودة ؟ قلت: بل كتبت الكتاب، فقال: بيضته ؟ قلت: نعم، فزاد في نظره إلي كالمتعجب مني، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه، وقال: يا صبي لا أدري من أي شيء أعجب أمن سرعة فهمك أم من حسن خطك، بارك الله فيك. ونعجب أن يظل سليمان بن وهب يعمل في الدواوين ويكتب رسائل ديوانيه مختلفة حتى عصر المعتمد ومع ذلك لا تحتفظ له كتب الأدب برسالة واحدة من تلك الرسائل، وحتى رسائله الشخصية لم تحتفظ منها إلا بما كتبه شعراً على نحو ما يلاحظ قارئ ترجمته في الأغاني، وإلا فقرة نثرية من كتاب اعتذار على هذا النحو[٢]:

"أنا مقر معترف، فما تراك صانعاً بمن أعلقك زمامه، وأمكنك من قياده، وحكمك في أمره، معاقباً له أو متفضلاً عليه بالعفو عنه؟ لكني أرجو أن أستقبل طاعة لا تمتنع ن شكرها، واغتفار كل تقصير خلا في جنبها، فالأيام بما تحب أمامك".

يبكي عليا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الإبل"

---

[١] الفخري ص ١٨٣.

[٢] جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ٣٢١/٤.

وليس بين أيدينا من رسائل عبيد الله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها في لعن معاوية، حتى يقرأ بها الخطباء بعد صلاة الجمعة على المنابر، وقد استهلها عبيد الله بالتحميد قائلاً[1]:

"بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله العلي العظيم، الحليم الحكيم، العزيز الرحيم، المنفرد بالوحدانية، الباهر بقدرته، الخالق بمشيئته وحكمته، الذي يعلم أسرار الصدور وضمائر القلوب لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات العلا، ولا في الأرضين السفلى، قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، وضرب لكل شيء أمداً، وهو العليم الخبير. والحمد لله الذي برأ خلقه لعبادته، وخلق عباده لمعرفته، على سابق علمه في طاعة مطيعهم، وماضي أمره في عصيان عاصيهم، فبين لهم ما يأتون وما يتقون، ونهج لهم سبل النجاة، وحذرهم مسالك الهلكة، وظاهر عليهم الحجة، وقدم إليهم المعذرة، واختار لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأكرمهم به، وجعل المعتصمين بحبله والمتمسكين بعروته أولياءه وأهل طاعته، والعاندين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ). والحمد لله الذي اصطفى محمداً رسوله من جميع بريته، واختاره لرسالته، وابتعثه بالهدى والدين المرتضى إلى عباده أجمعين، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين، وتأذن له بالنصر والتمكين، وأيده بالعز والبرهان المتين، فاهتدى به من اهتدى، واستنقذ به من استجاب له من العمى، وأضل من (مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى) حتى أظهر الله أمره، وأعز نصره، وقهر من خالفه، وأنجز له وعده، وختم به رسله، وقبضه مؤدياً لأمره، مبلغاً لرسالته، ناصحاً لأمته، مرضياً مهتدياً إلى أكرم مآب المنقلبين، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين، وعباده الفائزين، فصلى الله عليه أفضل صلاة وأتمها، وأجلها وأعظمها، وأزكاها وأطهرها، وعلى آله الطيبين".

ويكثر السجع في مقدمة هذه الرسالة التي كتبت لسنة ٢٨٤ وهو شيء طبيعي، فقد دخل السجع الرسائل الديوانية، وحقاً لم يطرد فيها بعد، حتى في هذه الرسالة نفسها فإن عبيد الله تخلص بعد ذلك منه في الرسالة. وقد مضى يصور استجابة بني هاشم للرسول عليه السلام حين دعا قومه للهدى ومؤازرتهم له ومناصرتهم بينما كان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه أبو سفيان

---

[1] طبري ١٠/٥٥.

بن حرب وأشياعه من بني أمية، حتى عل كلمة الله وهم لها كارهون. ثم يذكر آثاراً في ذم أبي سفيان وابنه معاوية وما كان من حربه لأفضل السلمين في الإسلام مكاناً وأقدمهم إليه سبقاً وأحسنه من فيه أثراً وذكراً علي بن أبي طالب. ويذكر أعمال معاوية وكيف أنه أباح المحارم ومنع الحقوق أهلها وقتل صبراً نفراً من خيار التابعين ويعرض أعمال يزيد بن معاوية وإيقاعه بأهل الحرة وسفكه دم الحسين مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل، اجتراء على الله وكفراً بدينه وعداوة لرسوله ومجاهدة لعترته واستهانة بحرمته. ويذكر ما كان من بني مروان من تعطيل كتاب الله وأحكامه ونصبهم المجانيق على بيته ورميهم له بالنيران استباحه وانتهاكها، ويختمها بقوله:

"أيها الناس بنا هداكم الله، ونحن المستحفظون فيكم أمر الله، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله، فقفوا عند ما نقفكم عليه. وانفذوا لما نأمركم به، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى. وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم، ويسأله توفيقكم، ويرغب إلى الله في هدايتكم لرشدكم وفي حفظ دينه عليكم، حتى تلقوه به مستحقين طاعته مستحقبين (حاملين) لرحمته".

وراجع المعتضد نفسه، وخشى أن يجمع الكتاب قلوب العامة حول العلويين، لما كان لجدهم على بن أبي طالب من بلاء عظيم في إعلاء كلمة الله وإلقاء كفار قريش له عن يد وهم صاغرون. وفي الكتاب إطراء عظيم له ولأبنائه. فأمسك عما كان عزم عليه. وواضح من الفقرة الأخيرة أن عبيد الله كاتبه، إن كان تخلص من السجع بعد تقديمه فإنه ظل يحتفل بصياغته، ويبدو أنه كان يستخدم السجع في جوانب من كتابته في الحين بعد الحين، وخاصة في توقيعاته، فقد كتب إليه أبو العيناء يذكره بأمره وأنه من زرعه وغرس يده، فوقع في رقعته[1]:

"أنا- أسعدك الله- على الحال التي عهدت، ومسيلي إليك كما علمت، وليس من أنسيناه أهملناه، ولا من أخرناه تركناه، مع اقتطاع الشغل لنا، واقتسامه زماننا، وكان من حقك علينا أن تذكرنا بنفسك، وتعلمنا أمرك، وقد وقعت لك برزق (راتب) شهرين لتزيح علتك وتعرفني مبلغ استحقاقك، لأطلق لك باقي أرزاقك، إن شاء الله، والسلام".

والتوقيع- كما هو واضح- سجع خالص. وسنرى عما قليل أن سريان السجع في الرسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجري كان أقوى منه في الرسائل الديوانية، حتى إذا كان عصر المقتدر (٢٩٥- ٣٢٠ هـ) أخذ السجع يعم في جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية، فليس هناك وزير ولا كاتب في الدواوين إلا وهو يتأنق في كتابته ويبالغ في تأنقه حتى يجعل كتابته سجعاً

---

[1] زهر الآداب ١/٢٩١.

خالصاً. وبذلك أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوشي بالسجع[١]، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه وفي مقدمتهم ابن الفرات. وكان علي بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة. ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقاني، فقد كان شغوفاً بالسجع شغفاً شديداً، وتروى له في ذلك نوادر كثيرة، منها أن عامل النيل أحد فروع الأنهار في العراق تأخر في حمل غلة إليه، فكتب إليه هذه العبارات: "أحمل الغلة، وأزح العلة، ولا تجلس متودعاً في الكلة (الستر)" ولاحظ أنه قد حشر الكلة في الكلام لاستكمال السجع، فالتفت على الكاتب وقال له: أفي النيل بق يحتاج إلى كلل ؟ فقال له الكاتب مداجياً مرائياً: إي والله وأي بق، ومن أجله يلزم الناس الكلل ليلاً ونهاراً[٢]. ووقع في رسالة وجه بها إلى بعض عماله: "الزم– وفقك الله المنهاج، واحذر عواقب الاعوجاج، واحمل ما أمكن من الدجاج، إن شاء الله"، وكأن أن حمل العامل إليه دجاجاً كثيراً، فقال: هذا دجاج وفرته بركة السجع[٣]. وكان الولاة يقلدون الوزراء في هذا البدع الجديد فقد ذكر الرواة أن الوالي على كور الأهواز كتب إلى علي بن عيسى كتاباً سجع فيه، فكتب إليه وقد صمم على عزله: "عولت بنا على كلام ألفته، وخطاب سجعته أوجب صرفك عما توليته[٤]".

وكان كتاب الدواوين على شاكلة الوزراء يسجعون في كتاباتهم، وفي مقدمتهم محمد بن جعفر بن ثوابة القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر والمتوفى سنة ٣١٢، وكان في باكورة حياته يكتب بين يدي عبيد الله بن سليمان بن وهب، وكلفه أن يجيب على كتاب خمارويه حين أنفذ ابنته إلى المعتضد، فقال في الفصل الذي احتاج فيه إلى ذكرها:

"وأما الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك، عناية بها، وحياطةً عليها، ورعاية لمودتك"، ورآه عبيد الله يعجب بهذه العبارات، فأخذ ينقدها له قائلاً: "تفاءلت لامرأة زفت إلى زوجها بالوديعة، والوديعة مستردة. وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح، لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمال، ولو قلت: بمنزلة شيء انتقل من حال إلى حال لكان أحسن. وكان خيراً من ذلك كله أن تقول:

---

[١] تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ص ٣٣٧ وما بعدها.

[٢] تاريخ الوزراء ص ٢٧٧.

[٣] نفس المصدر والصفحة .

[٤] تاريخ الوزراء ص ٣٣٥.

"وأما الهدية فقد حسن موقعها منا، وجل خطرها عندنا، وهي وإن بعدت عنك بمنزلة ما قرب منك لتفقدنا لها، وانسنا بها، ولسرورها بما وردت عليه واغتباطها بما صارت إليه" لكان أحسن[١]".

وواضح ما حمل نقد عبيد الله بن سليمان إلى الشاب في مطالع عمله بالدواوين من لفت قوي إلى العناية بصياغته ومعانيه وكأنه هو الذي حمله على أن يأخذ نفسه بتكلف شديد. ومعروف أن عبيد الله توفى سنة ٢٧٨، ولا نصل مع محمد بن جعفر إلى عصر المقتدر، حتى يصبح أكبر كاتب في دواوينه، وحتى يعهد إليه بتولي ديوان الرسائل، ويأخذ حينئذ نفسه بالحرص على السجع في كل ما يصدر عنه، على نحو ما يصور ذلك منشور وجهة باسم الخليفة المقتدر إلى العمال في البلدان المخلفة ينوه فيه بابن الفرات في وزارته الثانية لسنة ٣٠٤، وفيه يقول[٢]:

"لما لم يجد أمير المؤمنين غنى عنه، ولا للملك بدا منه، وكان كتاب الدواوين على اختلاف أقدارهم، وتفاوت ما بين أخطارهم مقرين برياسته، معترفين بكفايته، متحاكمين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا، مذعنين بأنه الحول القلب، المحنك المجرب، العالم بدرة المال كيف تحلب، ووجوهه كيف تطلب، انتضاه[٣] من غمده، فعاود ما عرف من حده، فنفذ الأعمال كأن لم يغب عنها، ودبر الأمور كأن لم يخل منها".

فالسجع أصبح ظاهرة عامة في الرسائل الديوانية، ويبدو أن ابن مقلة وزير المقتدر والخلفاء من بعده كان يستخدمه، إن لم يكن دائماً ففي الحين بعد الحين، وكان كاتباً بليغاً، وفيه يقول الصولي: "ما رأيت وزيراً منذ توفى القاسم بن عبيد الله ابن سليمان بن وهب (وزير المكتفي) أحسن حركة، ولا أظرف إشارة، ولا أملح خطاً، ولا أكثر حفظاً، ولا أسلط قلماً، ولا أقصد بلاغة ولا آخذ بقلوب الخلفاء من ابن مقلة"[٤] وهو صاحب الخط الذي تضرب به الأمثال، وهو أول من نقله من الوضع الكوفي إلى الوضع الذي شاع في العالم العربي، وكان أول من رفع من قدرة أبو الحسن بن الفرات، وخاصة في وزارته الثانية آنفة الذكر، حتى علت حاله وعرض جاهه، ولكنه عاد فاستوحش منه ونكبه. ثم خلص من المحنة، واستوزره المقتدر ومن جاءوا بعده، واحتفظ له كتاب النجوم الزاهرة برسالة أنفذ بها إلى ابن الفرات وقد طالت به المحنة، تجري على هذا النمط[٥]:

---

[١] معجم الأدباء ٩٨/١٨ وزهر الآداب ٢٨٩/٢.

[٢] معجم الأدباء ٩٧/١٨ وانظر رسالة أخرى له مسجوعة في الهمداني ص ٢٠.

[٣] انتضاه: سله .

[٤] النجوم الزاهرة ٢٦٨/٣.

[٥] النجوم الزاهرة ٢٦٨/٣.

"أمسكت- أطال الله بقاء الوزير- عن الشكوى، حتى تناهت البلوى، في النفس والمال، والجسم والحال، إلى ما فيه شفاء للمنتقم، وتقويم للمجترم، حتى أفضيت إلى الحيرة والتبلد، وعيالي إلى الهتكة والتشرد. وما أبداه الوزير- أيده الله- في أمري غلا بحق واجب، وظن غير كاذب. وعلى كل حال فلي ذمام وحرمة، وصحبة وخدمة إن كانت الإساءة أضاعتها فرعاية الوزير، أيده الله تعالى بحفظه، ولا مفزع إلا إلى الله بلطفه، وكنف الوزير وعطفه، فإن رأى- أطال الله بقاءه- أن يلحظ عبده بعين رأفته، وينعم بإحياء مهجته، وتخليصها من العذاب الشديد، والجهد الجهيد، ويجعل له من معروفه نصيباً، ومن البلوى فرجاً قريباً".

وكأن السجع أصبح لغة جميع الوسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة، بل مع أواخر القرن الثالث، فليس هناك كاتب إلا ويسجع، وإن فاته السجع في مكان من رسالته عاد إليه في الأمكنة الأخرى. وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابه ابنه أحمد منذ سنة ٣١٢، وظل على ديوان الرسائل من بعده إلى أن توفى سنة ٣٤٩، فخلفه عليه أبو إسحق الصابي. ولا ريب في أن أحمد مضى في إثر أبيه يسجع في رسائله وكل ما يصدر عنه من كتابات ديوانيه، وقد بقيت منها بقايا قليلة تصور سجعه وإغراقه فيه من مثل قوله في وصف فتح[١]:

"فلم يسفر العجاج[٢] إلا عن قتيل مرسل، أو غريق معجل، أو جريح معطل، أو أسير مكبل، أو مستأمن محصل، أو حقيبة ملأها الله بلا تعب، أو غنيمة أفاءها الله بلا نصب".

وواضح من كل ما قدمنا أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين، فالرسائل تمتلئ بزخارفه ولآلئه. إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفني في الكتابة الديوانية، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه في الكلام.

٥

الرسائل الإخوانية والأدبية

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن الرسائل الإخوانية ازدهرت حينذاك، إذ اتخذها الأدباء لتصوير عواطفهم ومشاعرهم في الخوف والرجاء والرهبة والرغبة والمديح والهجاء والتهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية والاستمناح. وبذلك نافس النثر الشعر في مجالاته الخاصة: مجالات الوجدان، وأظهر الكتاب في ذلك براعة فائقة، إذ كان كثير منهم بلغ الذروة في الفن الكتابي، وأيضاً فإن الشعراء أنفسهم أدلوا بدلائهم في تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير في نفوس من توجه إليهم. وبذلك توفر للرسائل الإخوانية كثيرون من الكتاب والشعراء

---

[١] الهمداني: تكلمة تاريخ الطبري ص ١٥٨.

[٢] العجاج: غبار الحرب .

النابهين، الذين استطاعوا أن يبثوا في النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير، حتى لنرى قوماً إذا سئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضلوا أن يكون نثراً، فقد روي المسعودي عن أبي العباس الملكي نديم محمد بن عبد الله بن طاهر أنه كان ينادمه ذات ليلة في سنة ٢٥٠ للهجرة، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والخيل، فقال له: أيكون ذلك منثوراً أو منظوماً؟ قال: لا، بل منثوراً[١]. فالنثر أصبح له القدح المعلي على الشعر، لا لأن أصحابه كانوا يرقون إلى الوظائف العليا في الدولة ودواوينها فحسب ولا لأنه كان يختار منهم الوزراء فحسب، بل أيضاً لأنه أصبح يضارع الشعر في التأثير في وجدان القارئ، بما وفر له كتابه العظام من جزالة الألفاظ ورصانتها ومن حسن تلاؤمها في الجرس. فالكاتب ما يزال يلائم بين لفظة ولفظة، بل أحياناً بين حرف وحرف، حتى يأسر العقول والألباب. وكان أكثر من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يسر تعابيره وما يجري فيها من مرونة، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه في بعض الأحوال أداة لتصوير خواطرهم ومشاعرهم وأفكارهم، كما ذكرنا آنفاً. وتحمل كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتاب بارعين، ونحن نعرض طائفة منها تصور مدى ما كانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان، فمن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل في عيد نيروز، يهنئه بالعيد، وكلها دعاء وابتهال، يقول[٢]:

"أسعدك الله- يا أمير المؤمنين- بكر الدهور، وتكامل السرور، وبارك لك في إقبال الزمان، وبسط بيمن خلافتك الآمال، وخصك بالمزيد، وأبهجك بكل عيد، وشد بك أزر التوحيد، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق، بطيب أيام الخريف المغدق (كثير المياه) وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل، وغبطة إليها نهاية ضارب المثل، وعمر ببلائك الإسلام، وفسح لك في القدرة والمدة وأمتع برأفتك وعدلك الأمة، وسربلك (ألبسك) العافية، ورداك السلامة، ودرعك العز والكرامة، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدية،والأزمنة إليك راغبة متشوقة، والقلوب نحوك سامية، تلاحظك عشقاً، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً".

وكانت قد أخذت تشيع التهنئات بالأعياد الفارسية والإسلامية شعراً فجعلها الحسن بن وهب نثراً، وفي رأينا أنه لم يعش طويلاً في عصر المتوكل. كانوا قد اعتادوا كثيراً في العصر العباسي الأول أن يتهادوا التحف والطرف، وعادة كانوا يرسلون مع الهدية بعض الأشعار، وأخذ النثر يزاحم الشعر في هذا الموضوع، فمن ذلك أن نرى الكندي الفيلسوف المتوفى سنة ٢٦٠ كما مر بنا يهدي إلى بعض إخوانه سيفاً ويكتب معه[٣]:

---

[١] مروج الذهب للمسعودي ٤/٧٠.

[٢] المحاسن والأضداد ص ٢٨٥.

[٣] غرر الخصائص الواضحة ص ٤٤٧.

"الحمد لله الذي خصك بمنافع ما أهدى إليك، فجعلك تهتز للمكارم، اهتزاز الصارم (السيف)، وتمضي في الأمور، مضاء السيف المأثور (المتألق اللامع) وتصون عرضك بالإرفاد (الإعطاء) كما تصان السيوف في الأغماد، ويظهر دم الحياء في صفحة خدك المشوف (المجلو) كما يشف الرونق في صفحات السيوف، وتصقل شرفك بالعطيات، كما تصقل متون المشرفيات (السيوف)".

والرسالة تتقدم في السجع خطوة عن سابقتها، فإن الحسن بن وهب كان يترك السجع أحياناً أما الكندي فإنه في رسالته يتشبث بالسجع، وكأنما لحق عصراً كانت عنايته به أقوى وأشد من عصر الحسن بن وهب. ومر بنا أبو علي البصير بين الشعراء، ويقول ابن المعتز كان كاتباً رسالياً (صاحب رسائل) ليس له في زمانه ثان ... وقد قلنا في أخبار العتابي (وكان شاعراً كاتباً): إن هذا قلماً يتفق للرجل الواحد، لن الشعر الذي للكتاب ضعيف جداً، فإذا اجتمعنا في الواحد فهو المنقطع القرين[١]".

"إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه، وائتمنك على رعيته، فنطق بلسانك، وأخذ وأعطى بيدك، وأورد وأصدر عن رأيك ... ولم يزد- وأكرمك الله- رفعة وتشريفاً إلا ازددت له هيبة وتعظيماً، ولا تسليطاً وتمكيناً إلا زدت نفسك عن الدنيا عزوفاً وتنزيهاً، ولا تقريباً واختصاصاً إلا ازددت بالعامة رأفة وعليها حدباً، لا يخرجك فرط النصح له عن النصر لرعيته، ولا إيثار حقه عن الأخذ بحقها عنده ... ولا يشغلك معاناة كبار الأمور عن تفقد صغارها .. تمضي ما كان الرشد في إمضائه، وترجي ما كان الحزم في إرجائه ... وتلين في غير تكبر، وتعم في غير تصنع، لا يشقى بك المحق وإن كان عدواً، ولا يسعد بك المبطل وإن كان ولياً ... وكافة الرعية- إلا من غمط (بطر) منهم النعمة- مشنون عليك بحسن السيرة، ويمن النقيبة".

وقدرة أبي على البصير على اختيار الألفاظ بارعة، فقد كان يعرف كيف يختار مفرداته وكيف يؤلف بينها تأليفاً حسناً، يجري فيه التقابل والتوازن،وإن لم يجر في هذه الرسالة السجع، ولكن يجري فيها ماء ورونق. وهو لم يسق في مديح عبيد الله عبارات طنانة فحسب، بل ساق معاني سياسية جيدة، فهو رءوف بالشعب حدب عليه، وحق كل فرد فوق حق الخليفة نفسه، مدبر حازم. مترفع عن الصغائر، في تواضع لا يسف به إلى الدنيات دون تكلف. لا يؤذي محقاً وإن كان عدواً، ولا يسر مبطلاً وإن كان صديقاً. والرعية جميعها تحبه وتثني عليه لسيرته وفضائله الطيبة. وله رسالة مسجوعة تدخل في العتاب أو بعبارة أدق في الهجاء كتب بها إلى أبي العيناء منافسة في منادمة الخلفاء والوزراء، وفيها يقول[٢]:

---

[١] طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨.

[٢] جمهرة رسائل العرب ١٥٩/٤.

"من أبي على البصير، ذي البرهان المنير، المبلغ في التحذير، المعذر في النكير، إلى أبي العيناء الضرير، ذي الرأي القصير، والخطل الكثير، والإقدام بالتعبير، سلام على المخصوصين بالسلام، من أجل حقيقة الإسلام، المؤمنين بالحلال والحرام، والفرائض والأحكام، فإني أحمد الله إلى نفسه وأوليائه من خلقه، على ما هداني من دينه ،وعرفني من حقه، وامتن علي به من تصديق رسله ... أما بعد فإنك الرجل الدقيق حسبه، الرديء مذهبه، الدنيء مكسبه، الخسيس مطلبه، البذيء لسانه، المبتلي به إخوانه ... قد صيرت القحة (الوقاحة) جنة (وقاية) وشتم الأعراض سنة ... صديقك على وجل منك إن شاهدته عافك، وإن غبت عنه خافك، تسأله فوق الطاقة، وترهقه عند الفاقة (الفقر) فإن اعتذر إليك لم تعذره، وإن استنظرك لم تنظره (تمهله) وإن أنعم عليك لم تشكره، لا تزيدك السن إلا نقصاً، ولا يفيدك الغنى إلا حرصاً ... وتعرض للناس بالسؤال، غير محتشم من الإملال ... من أطاعك في مال حربته (سلبته)، ومن منعك بعذر واضح سببته ... ومن أكرمك أهنته وتطاولت عليه، ومن أهانك استكنت له ولنت في يديه ... إرتك عن أبيك السعاية ،ونقل الأخبار والوشاية".

والرسالة كلها- على هذا النحو- هجاء وإقذاع في الهجاء، وقد استهلها لمحاً إلى أن أبا العيناء لا يؤمن بحلال ولا حرام ولا بفرائض ولا أحكام مخرجاً له من الملة حامداً لنفسه هداه وتصديق الرسل الذين يكفر بهم أبو العيناء. ثم يسبه في حسبه وفي مذهبه ومكسبه واصفاً له بالخسة والدناءة، وأنه لا يحترم صديقاً مهما أكرمه، مع الشح والتعرض للناس بالسؤال والإلحاف فيه. ويقول له في نهاية رسالته: "قد ملت إلى السجع على علمي بخساسة حظه وركاكة معانيه ولفظه، إذ كنت تلوي به لسانك، وتشني إليه عنانك، قطعاً لحجتك، وإزاحة لعلتك". وكان أبو العيناء على شاكلة أبي على البصير يملأ رسائله بالسجع على نحو ما نجد في رسالة كتب بها على عبيد الله بن يحيى بن خاقان يشكو له ابنه محمداً إذ أهداه فرساً غير فاره، وفيها يقول[١]:

"أعلم الوزير- أيده الله- أن أبا علي محمداً أراد أن يبرني فعقني، وأن يركبني فأرجلني، أمر لي بفرس كالقضيب اليابس عجفاً (هزالاً) وكالعاشق المهجور فأرجلني، أمر لي بفرس كالقضيب اليابس عجفاً (هزالاً) وكالعاشق المهجور دنفاً (سقماً). قد أذكر الرواة عروة العذرى، والمجنون العامرى ... وقد حفظ الأشعار، وروي الأخبار، ولحق العلماء في الأمصار ... وإنما أتيت من كاتبه الأعور، الذي إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر، وإن اختار لغيره أخبث وأنزر (قلل)".

والرسالة سجع خالص، وكأن من الكتاب من أخذ يصطنعه منذ أوائل هذا العصر في بعض الرسائل، فإن لأبي العيناء نفسه رسائل أخرى في الاستمناح[٢] وطلب النوال وفي الشكر[١]،

---

[١] زهر الآداب ١٦٥/٢.

[٢] زهر الآداب ٢٩١/١.

يكتفي فيها بالعبارة المصقولة والألفاظ المنتخبة المختارة دون أن يعني بالسجع وترصيفه وتنميقه. ومن الكتاب البلغاء المعاصرين لأبي العيناء وأبي على البصير محمد بن مكرم، وفيه يقول صاحب الفهرست: "كاتب بليغ مترسل، وله كتاب رسائل[٢]"، وتدور له في الكتب مجموعة من الرسائل، منها رسالة في الاعتذار لبعض الرؤساء على هذه الشاكلة[٣]:

"نبت بي عنك غرة (غفلة) الحداثة، فردتني إليك التجربة، وباعدتني عنك الثقة بالأيام، فأدنتني إليك الضرورة ثقة بإسراعك إلى، وإن أبطأت عنك، بقبولك لعذري وإن قصرت عن واجبك. وإن كانت ذنوبي قد سدت مسالك الصفح عني، فراجع في مجدك وسؤددك. وإني لا أعرف موقفاً أذل من موقف، لولا أن المخاطبة فيه لك، ولا خطة أدنى من خطتي، لولا أنها في طلب رضاك".

والرسالة محكمة، وكل عبارة كأنما حاكتها أو قل صبتها في قالبها يد صناع وحقاً لم يحل الرسالة بالسجع، ولكن العبارات كلها كأنها حلى مختارة، سواء في اصطفاء الألفاظ، أو في توشيتها بألوان البديع، فالغرة أمام التجربة، والبعد أمام الدنو، والسرعة أمام البطء. ثم تتعاقب الاستعارات والصور، فالذنوب قد سدت بحجاب غليظ دروب الصفح ومسالكه، وهو يتوسل أن يراجع فيه مجده وسؤدده. ثم يأتي التلطف وقبول الذل وكأنه يقبله من حبيب. وله رسالة جيدة في تعزية سليمان بن وهب عن أخيه الحسن حي لبي نداء ربه، ونكتفي منها بهذه الفقرة[٤]:

"إن الرمض (حرقة الغيظ) والهلع إنما يكونان المصيبة الخاصة التي لا تعدو صاحبها، ولا يجد مسعداً (معيناً) عليها، ولا شريكاً فيها، وقد أعانك الله على مصيبتك بالواشج (المشتبك) رحماً بك والبعيد نسباً منك، وجمع في ثقل محملها وألم فجعها صديقك وعدوك، وكل مكتس منها سربال وحشة، ومنطو على دخيل حزن، وناظر من أعقابها في منظر وعر، فجميعهم فيها مشترك، وأنت بالتعزي حقيق قمين".

والقطعة كالرسالة السابقة، ألفاظها محكمة، ويجري فيها الطباق والتقابل والاستعارات والصور والرصف الدقيق للعبارات، فالنسج متين، وعليه ألوان وصور تلفت الأذهان. ومن الكتاب البلغاء أحمد بن سليمان بن وهب، وهو من بيت كتابة، كان أبوه وعمه الحسن من البلغاء المفوهين، وله في الصداقة رسالة كتب بها إلى بعض أصدقائه، وفيها يقول[٥]:

---

(١) زهر الآداب ٩٥/٣.

(٢) الفهرست ص ١٨٥.

(٣) عيون الأخبار ١٠٥/٣ وزهر الآداب ٣٨٢/٣.

(٤) جمهرة رسائل العرب ٢٤٨/٤.

(٥) معجم الأدباء ٦٢/٣.

"ليس عن الصديق المخلص والأخ المشارك في الأحوال كلها مذهب، ولا وراءه للواثق به مطلب، والشاعر يقول:

وإذا يصيبك والحوادث جمة حدث حداك إلى أخيك الأوثق

وأنت الأخ الأوثق، والولي المشفق، والصديق الوصول، والمشارك في المكروه والمحبوب، قد عرفني الله من صدق صفائك وكرم وفائك، على الأحوال المتصرفة، والأزمنة المتقلبة، ما يستغرق الشكر، ويستعبد الحر، وما من يوم يأتي على إلا وثقتي بك تزداد استحكاماً، واعتمادي عليك يزداد تأكداً والتئاماً ... وأعيذك بالله من العيون الطامحة، والألسنة القادحة، وأسأله أن يجعلك في حرزه الذي لا يرام، وكنفه الذي لا يضام، وأن يحرسك بعينه التي لا تنام، إنه ذو المن والإنعام".

واستخدامه للسجع واضح، وليس سجعاً متكلفاً، مما يدل على أنه حذق صناعته، حتى اصبح السجع ينحدر عن لسانه انحداراً سهلاً طبيعياً، لا عوج فيه ولا التواء، ولا تكلف ولا عثرات هنا أو هناك، بل أسلوب مستو متناسق. ومن الشعراء الكتاب الذين نبغوا في كتابة النثر والشعر أحمد بن أبي طاهر طيفور، ومرت بنا ترجمة له بين الشعراء، ويحتفظ كتابه: "اختيار المنظوم والمنثور" بطائفة من رسائله، منها رسالة في شكر علي بن يحيى المنجم على بر واسع أغدقه عليه، تمضي على هذا النحو[١]:

"إن أحق معروف بأن يشكر، ويد بارة بأن لا تكفر، وأحق واجب بأن يؤدى، وإحسان وبر بأن يجازى معروفك- أعزك الله- عندي، ويدك قبلي، وحقك علي، وإحسانك إلي، لأن المعروف يحسن عند الأحرار موقعه، ويجب عليه شكره ونشره والإشادة بذكره. تتطوع مبتدئاً، وتشفع ما تقدم معقباً، وتحسن رب ما أسديته متفضلاً، لا أخلاك الله من بر وإحسان، ولا أخلانا منك في حال".

والرسالة فيها سجع قليل، ولكن له رسائل أخرى يكثر فيها السجع، وكان كثير الهجاء للكتاب، ويبدو أنه قلما كان أحد يسلم من لسانه، وممن هجاهم وأقذع في هجائهم ابن ثوابة وابن مكرن، ومن قوله في رسالة كتب بها إلى أبي على البصير يذم له الأخير ويعدد مثالبه[٢]:

"المقلي المذمم، المهين ابن مكرم ... العاكف على ذنبه، الصادف عن ربه، الوضيع في خلائقه، العاتي على خالقه ... عدوه آمن من غائلته، وصديقه خائف من بائقته ... من استخف

---

[١] جمهرة رسائل العرب ٣٤٤/٤.

[٢] جمهرة رسائل العرب ٣٥٠/٤.

به أكرمه. ومن وصله صرمه (قطعه) ... يحلف ليحنث، ويعهد لينكث، إسناده عن المذمومين، وبلاغته في ذم الصالحين، وطرفه قذف المحصنات، وسعيه في كسب السيئات".

ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة في التهاني والتعازي والاعتذار والشوق والفراق وفي السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولي في ترجمته، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب، ويقل السجع في رسائله الإخوانية، ولكنه يعني أشد العناية بصياغة كلامه، على نحو ما نرى في الرسالة التالية، وهي في تهنئة صديقه عبيد الله بن وهب وزير المعتمد في يوم عيد[١]:

"أخرتني العلة عن الوزير– أعزه الله– فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني، ويعمر ما أخلته العوائق مني، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير، ودون الأعياد المستقبلة فيما يحب ويحب له، ويقبل ما توصل به إلى مرضاته، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ،ولا يريه في مسرة نقصاً، ولا يقطع عنه مزيداً، ويجعلني من كل سوء فداءه، ويصرف عيون الغير (حوادث الدهر) عنه وعن حظي منه".

والرسالة أدعية للوزير الصديق، وهو يعني فيها أشد العناية بجزالة العبارة ونصاعتها، ولكن دون أن يلجأ إلى سجع. ويحتفظ له كتاب الأوراق بفصول كثيرة من بعض رسائله، فمن ذلك فصل في الشوق يقول فيه: "إني لآسف على كل يوم فارغ منك، وكل لحظة لا تؤنسها رؤيتك، وسقياً لدهر كان موسوماً بالاجتماع معك، معموراً بلقائك، جمع الله شمل سروري بك، وعمر بقائي بالنظر إليك[٢]". ومن ذلك فصل في شفاعة: "موصل كتابي فلان، وقد جعلت الثقة به مطيته إليك، فلا تنضها (تهزلها) بمطلك، وأسرع ردها بسابق إنجازك، وتصديق الأمل فيك والظن بك[٣]"، ولا ريب في أنه كان يسجع أحياناً ففي بعض فصوله: "قد ملت إليك فما اعتدل، ونزلت بك فما ارتحل، ووقفت عليك فما انتقل"[٤] وفي فصل آخر: "تولى الله عني مكافأتك، وأعان على فعل الخير نيتك، وأصحب بقاءك عزا يبسط يدك لوليك وعلى أعدائك، وكلاءة

---

[١] زهر الآداب ٢٠٧/١.

[٢] أشعار أولاد الخلفاء للصولي ص ٢٩٢.

[٣] الصولي ص ٢٩٠.

[٤] الصولي ص ٢٩١.

(حراسة) تذب عن ودائع مننه عندك، وزاد في نعمك وإن عظمت وبلغك آمالك وإن انفسحت[١]".
وله في وصف الكتاب والقلم[٢]:

"الكتاب والج الأبواب، جريء على الحجاب، مفهم لا يفهم، وناطق لا يتكلم، به يشخص (يحضر) المشتاق، ومنه يداوي الفراق. والقلم مجهز لجيوش الكلام يخدم الإرادة، ولا يمل الاستزادة، يسكت واقفاً، وينطق سائراً، على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء، وكأنه يقبل بساط سلطان، أو يفتح نوار بستان".

والوصف يكثر فيه السجع، كما يكثر التصوير، فقد شخص الكتاب وجسمه في صور كثيرة، وبالمثل صنع بالقلم، وأخرجه مع الصحف التي كتبها في صور بديعة:

وكان الكتاب يكثرون من الدعوة للزيارة ولقضاء بعض الوقت في اللهو ولسماع الغناء أو للسمر والطعام. وأكثروا من التهاني في كل مناسبة في الأعياد وفي الزواج وفي إنجاب الورد وفي ختانهم، وفي الحج وقضاء مناسكه، وفي وصف الطبيعة شتاء وفي الربيع... وقد تعقبنا انتشار السجع في الرسائل الإخوانية طوال العصر، لندل على أن ذوقاً عاماً أخذ يعني به، وهي عناية جعلته يعم في تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث، بل لقد أخذ يعم- منذ أواسطه- عند أبي علي البصير وأبي العيناء في بعض رسائلهما. وقد أخذت تنتشر مع ذلك عناية باصطناع الصور البيانية وبعض ألوان البديع على نحو ما لاحظنا في بعض رسائل ابن مكرم، وكأن الكاتب لا يريد أن يؤلف كلاماً فحسب، بل يريد أن يصوغ دوراً، مما هيأ لسيادة السجع وسيطرته على جميع الرسائل سياسة وإخوانية منذ عصر المقتدر، بل لقد هيأ ذلك لظهور كتاب الألفاظ الكتابية التي ألف فيها عبد الرحمن ابن عيسى الهمذاني المتوفى سنة ٣٢٠ كتابه الذي وقفنا عنده في موضع آخر، وهو يدل بوضوح على أنه أخذت تسود فكرة النموذج في الكتابة: في التهاني والتعازي والبشارة والإنذار والاعتذار، وأيضاً في كتابة الرسائل الديوانية، ففي كل ذلك درر من السجع والصور تحفظ وتصبح مادة للكتاب، تعينهم في كتابة الرسائل،وكأنما كان صنيع الهمذاني نذيراً بجمود النثر العربي وأن يصبح صيغاً براقة، تخلب بما فيها من أسجاع قبل أن تخلب بما فيها من معان.

ولم يقف انتشار السجع وشيوعه عند الرسائل الإخوانية والديوانية، فقد أخذ يشيع في الرسائل الأدبية الخالصة، وكان الجاحظ قد أشاع في تلك الرسائل أسلوب الازدواج المعروف به، غير أن من تلوه في القرن الثالث الهجري أخذوا يدخلون عليها السجع ويكثرون منه، على نحو ما تصور ذلك رسالة لابن المعتز كتب بها إلى بعض أصدقائه يصف سامراء ويأسى لخرابها ويذم بغداد

---

[١] الصولي ص ٢٩٤.

[٢] الصولي ص ٢٩٢ وزهر الآداب ٣٢/٢.

وأهلها، وهي أشبه بمناظرة بين البلدتين: العاصمة القديمة سامراء، والعاصمة الجديدة بغداد، وكان قد انتقل إليها المعتمد منذ سنة ٢٧٦ وانتقل معه ابن المعتز. ولعل من الخير أن نسوق أكثر هذه الرسالة الطريف، وهي تمضي على هذه الصورة[١]:

"كتب إليك من بلدة قد أنهض[٢] الدهر سكانها، فشاهد البأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر، فكأن عمرانها يطوي وكأن خرابها ينشر، وقد وكلت إلى الهجر نواحيها، واستحث باقيها إلى فانيها، وقد تمزقت بأهلها الديار، فما يجب فيها حق جوار، فالظاعن منها ممحو الأثر، والمقيم بها على طرف سفر، نهاره إرجاف، وسروره أحلام ... فحالها تصف للعيون الشكوى، وتشير إلى ذم الدنيا، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض، وقرار الملك، تفيض بالجنود أقطارها، عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد، كأن رماحهم قرون الوعول، ودروعهم زبد السيول، على خيل تأكل الأرض بحوافرها، وتمد بالنقع (الغبار) سرادقها، قد نشرت في وجوهها غرر كأنها صحائف البرق، وأمسكت تحجيل كأنه أسورة اللجين، وقرطت عذراً[٣] كالشنوف، في جيش يتلقف الأعداء أوائله، ولم تنهض أواخره، قد صب عليه وقار الصبر، وهبت له روائح النصر، يصرفه ملك يملأ العيون جمالاً، والقلوب جلالاً ... قبل أن تخب (تعدو) مطايا الغير، وتسفر وجوه الحذر، وما زال الدهر مليئاً بالنوائب، طارقاً بالعجائب، يؤمن يومه، ويغدر رغده. على أنها- وإن جفيت- معشوقة السكنى، حبيبة المثوى (المنزل) كوكبها يقظان، وجوها عريان (صحو) وحصباؤها جوهر، ونسيمها معطر، وترابها مسك أذفر (ذكي) ويومها غداة (لطيف الطقس) وليلها سحر، وطعامها هنيء، وشرابها مريء، وتاجرها مالك، وفقيرها فانك (غير محتاج) لا كبغدادكم الوسخة السماء، الومدة (الراكدة) الهواء، جوها نار، وأرضها خبار (لينة) وحيطانها نزور (تنز بالماء) وتشرينها (أكتوبر) تموز (يولية) فكم في شمسها من محترق، وفي ظلها من غرق، ضيقة الدار، قاسية الجوار، ساطعة الدخان، قليلة الضيفان، أهلها ذئاب، وكلامهم سباب، وسائلهم محروم، ومالهم مكتوم، لا يجوز إنفاقه، ولا يحل خناقه (كيسه) وحيطانهم خصاص (أكواخ) وبيوتهم أقفاص (ضيقة) ولكل مكروه أجل، وللبقاع دول، والدهر يسير بالمقيم، ويمزج البؤس بالنعيم".

والسجع زاخر في الرسالة كما يرى القارئ، وكأن ابن المعتز أراد أن يجعلها رسالة أدبية خالصة، فهو يختار لها الأسلوب الذي أخذ يشيع في عصره أسلوب درر السجع ولآلئه التي أصبحت موضع إعجاب الكتاب والتي كانت تروقهم إلى أقصى حد، مما هيأ الأذواق لأن ترفع

---

[١] زهر الآداب ٢٠٧/١ وجمهرة رسائل العرب ٤٠٣/٤.

[٢] أنهض هنا: بعث على الرحيل .

[٣] العذر: جمع عذار وهو من اللجام ما سال على خد الفرس . الشنوف: جمع شنف وهو القرط.

اللفظ فوق المعنى، فالمدار على جمال الجسد لا جمال الروح، والعبرة بالشكل لا بالجوهر، وبالقلب لا بما يحتويه، وبالبريق الخارجي للمعاني لا بالبريق الداخلي. وعم ذلك حتى طغى في كتابه بعض الأخبار، وحتى نجد الخليفة القاهر (٣٢٠- ٣٢٢ هـ) يطلب من بعض أصحاب التاريخ وصف الخلفاء العباسيين الذين سبقوه، ويقول له: "لا تغيب عني شيئاً، ولا تحسن القصة ولا تسجع فيها[١]"، فهو لا يريد في وصفهم إدخال زينة السجع، حتى لا يجور اللفظ على المعنى. وكأنما أصبح السجع أسلوب الكتابة العامة واطرد ذلك في العصر التالي، وظل آماداً متطاولة.

وابن المعتز لا يكتفي في هذه الرسالة الأدبية بالسجع، بل يضيف إلى ذلك ألواناً من البديع، إذ تطالعنا فيها توا الطباقات. فالنهوض أو الرحيل يقابل القعود، واليأس يقابل الرجاء، والخراب يقابل العمران، والنشر يقابل الطي، والباقي يقابل الفاني، والظاعن يقابل المقيم. وبجانب الطباقات ما اشتهر به في شعره من كثرة التشبيهات وإيراد الصور الطريفة، فالخيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد من الغبار سرادقاً ضخماً يظل الجيش، والغرر في وجوهها كأنها صحائف البرق، والتحجيل في سيقانها كأنه الأساور من فضة تحيط بها، وما سال على خدودها من اللجم كأنه أقراط في آذانها، والحصباء جوهر، والتراب مسك أذفر. وتتوالى الصور والتشبيهات وابن المعتز دائماً يستمد من مخازن لا تنفد، مخازن تعطيه كل ما يريد من زخارف السجع وزخارف الصور والأخيلة، وكأنه لم يلبث أن انضم بقوة إلى الركب، ركب العناية بالوشي. ويطل القرن الرابع، وإذا هذه العناية تصبح هي الذوق العام في الكتابة الأدبية، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفني الجديد أسلوب السجع وما يطوي فيه من زخارف البديع.

---

[١] مروج الذهب ٤/٢٢٢.